www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

الإعجاز والتحدي
في القرآن الكريم
العلامة الكبير
السيد محمد حسين الطباطبائي
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم

كاتب:

علامه سيد محمد حسين طباطبايى

نشرت فى الطباعة:

موسسة الاعلمى للمطبوعات

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم ----- ۹
اشارة ----- ۹
المقدمة ----- ۹
الفصل الأول التحدی بالإعجاز ----- ۹
الفصل الثانی التحدّی بالعلم ----- ۱۱
الفصل الثالث التحدّی بمن أنزل علیه القرآن الکریم ----- ۱۱
الفصل الرابع تحدّی القرآن بالإخبار عن الغیب ----- ۱۲
الفصل الخامس تحدّی القرآن بعدم الاختلاف فیه ----- ۱۳
الفصل السادس التحدّی بالبلاغة ----- ۱۴
الفصل الأول تصدیق القرآن لقانون العلیّة العامّة ----- ۱۷
الفصل الثانی إثبات القرآن ما یخرق العادة ----- ۱۷
الفصل الثالث القرآن فی إسناده إلی العلّة المادیّة یسند إلی اللّه ----- ۲۰
الفصل الرابع القرآن یثبت تأثیرا فی نفوس الأنبیاء فی الخوارق ----- ۲۰
الفصل الخامس القرآن کما یسند الخوارق إلی تأثیر النفوس یسندها إلی أمر اللّه ----- ۲۱
الفصل السادس القرآن یسند المعجزة إلی سبب غیر مغلوب ----- ۲۱
الفصل السابع القرآن یعد المعجزة برهانا علی صحّة الرسالة لا دلیلا عامیا ----- ۲۲
نزول القرآن ----- ۲۵
۱- النزول حقیقته و تعریفه: ----- ۲۵
۲- کیفیة نزول القرآن: ----- ۲۵
۳- بعض الإشکالات و الردّ علیها: ----- ۲۸
عمدة البیان فی ترتیب القرآن ----- ۳۰
اشارة ----- ۳۰

الفصل الأول معنی الأجزاء و الأحزاب القرآنیة ----- ۳۰
الفصل الثانی عدد السور القرآنیة ----- ۳۱
الفصل الثالث فی ترتیب السور نزولا ----- ۳۱
المحکم و المتشابه و التأویل فی القرآن الکریم ----- ۳۲
اشارة ----- ۳۲
الفصل الأول المحکم و المتشابه ----- ۳۲
اشارة ----- ۳۳
الأقوال فی معنی المحکم و المتشابه ----- ۳۳
اشارة ----- ۳۳
أحدها: أن المحکمات هو قوله تعالی: قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّکُمْ عَلَیْکُمْ أَلَّا تُشْرِکُوا بِهِ شَیْئاً «۲» إلی آخر الآیات الثلاث و المتشابهات هی التی ت
و ثانیها: عکس الأول و هو أن المحکمات هی الحروف المقطعة فی فواتح السور و المتشابهات غیرها ----- ۳۳
و ثالثها: أن المتشابه هو ما یسمی مجملا و المحکم هو المبین. ----- ۳۴
رابعها: أن المتشابهات هی الآیات المنسوخة لأنها یؤمن بها و لا یعمل بها، و المحکمات هی الآیات الناسخة ----- ۳۴
خامسها: أن المحکمات ما کان دلیله واضحا لائحا کدلائل الوحدانیة و القدرة و الحکمة، و المتشابهات ما یحتاج فی معرفته إلی تأمل ----- ۳۴
سادسها: أن المحکم کل ما أمکن تحصیل العلم به بدلیل جلی أو خفی، و المتشابه ما لا سبیل إلی العلم به ----- ۳۵
سابعها: أن المحکمات آیات الأحکام و المتشابهات غیرها ----- ۳۵
ثامنها: أن المحکم من الآیات ما لا یحتمل من التأویل إلّا وجها واحدا و المتشابه ما احتمل من التأویل أوجها ----- ۳۵
تاسعها: أن المحکم ما أحکم و فصل فیه خبر الأنبیاء مع أممهم، و المتشابه ما اشتبهت ألفاظه من قصصهم ----- ۳۶
عاشرها: أن المتشابه ما یحتاج إلی بیان و المحکم خلافه ----- ۳۶
الحادی عشر: أن المحکم ما یؤمن به و یعمل به و المتشابه ما یؤمن به و لا یعمل به ----- ۳۶
الثانی عشر: أن المتشابهات هی آیات الصفات خاصة ----- ۳۶
الثالث عشر: أن المحکم ما للعقل إلیه سبیل و المتشابه بخلافه. ----- ۳۷
الرابع عشر: أن المحکم ما أرید به ظاهره و المتشابه ما أرید به خلاف ظاهره ----- ۳۷
الخامس عشر: ما عن الأصم: أن المحکم ما أجمع علی تأویله و المتشابه ما اختلف فیه ----- ۳۷

السادس عشر: أن المتشابه ما أشكل تفسيره لمشابهته غيره ---- ۳۷
الفصل الثانی المحکمات أم الکتاب ---- ۳۹
الفصل الثالث حقیقة التأویل فی القرآن الکریم ---- ۴۰
الفصل الرابع هل یعلم تأویل القرآن غیر اللّه سبحانه ---- ۴۳
الفصل الخامس ما هو السبب فی اشتمال الکتاب علی المتشابه؟ ---- ۴۶
الفصل السادس المحکم و المتشابه فی ضوء الروایات ---- ۵۲
التفسیر حقیقته و أقسامه ---- ۵۵
عصمة القرآن عن التحریف ---- ۶۲
اشارة ---- ۶۲
الفصل الأول القرآن ینفی وقوع التحریف فیه ---- ۶۲
الفصل الثانی الروایات تنفی وقوع التحریف ---- ۶۳
الفصل الثالث نقد القول بالتحریف ---- ۶۴
اشارة ---- ۶۴
و احتجوا علی نفی الزیادة بالإجماع و علی وقوع النقص و التغییر بوجوه ---- ۶۴
اشارة ---- ۶۴
الوجه الأول: الأخبار ---- ۶۴
الوجه الثانی: أن العقل یحکم ---- ۶۵
الوجه الثالث: ما روته العامة و الخاصة أن علیا علیه السلام ---- ۶۵
الوجه الرابع: ما ورد من الروایات أنه یقع فی هذه الأمة ما وقع فی بنی إسرائیل ---- ۶۵
و الجواب عن الوجه الأول ---- ۶۶
و الجواب عن الوجه الثانی ---- ۶۸
و الجواب عن الوجه الثالث ---- ۶۸
و الجواب عن الوجه الرابع: ---- ۶۹
جمع القرآن الکریم ---- ۶۹

اشارة ----- ۷۰

نتیجة البحث: ----- ۷۲

نظرة عابرة فی روایات الإنساء ----- ۷۶

الفهرس ----- ۷۷

تعریف المرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۷۷

الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم

اشارة

نام کتاب: الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم نویسنده: سید محمد حسین طباطبائی / قاسم الهاشمی موضوع: اعجاز تاریخ وفات مؤلف: ۱۳۶۰ / ۱۴۰۲ زبان: عربی تعداد جلد: ۱ ناشر: موسسة الاعلمی للمطبوعات مکان چاپ: بیروت سال چاپ: ۱۴۲۳ / ۲۰۰۲ نوبت چاپ: اوّل

المقدمة

المقدمة بسم اللّه الرّحمن الرّحیم الحمد للّه ربّ العالمین و الصلاة و السلام علی أفضل خلقه و أشرف بریّته أبی القاسم محمّد و علی آله الطاهرین. القرآن هو الناموس الإلهی الذی تکفل للناس بإصلاح الدین و الدنیا، و ضمن لهم سعادة الآخرة و الأولی، فکل آیة من آیاته منبع فیّاض بالهدایة و معدن من معادن الإرشاد و الرحمة، و کما جاء فی الحدیث الشریف عن الإمام الصادق علیه السّلام «القرآن عهد اللّه إلی خلقه، فقد ینبغی للمرء المسلم أن ینظر فی عهده تعالی». و غایة النظر و التدبّر فی القرآن الکریم التفکیر فی آیاته، و التماس غرائبه، و التعمّق فی أهدافه و مقاصده. و لذا نجد أنّ المفسّرین بأجمعهم یعقدون بحثا کاملا فی علوم القرآن قبل الدخول فی تفسیر الآیات القرآنیة، و یعتبرون ذلک مفتاحا و مدخلا أساسیا فی التعرف علی مکنونات الآیات القرآنیة، ثمّ نجدهم یفصّلون القول فی بعض البحوث المهمّة فی هذا الباب کبحث المحکم و المتشابه و التأویل و ذلک لأهمیّته فی تفسیر القرآن الکریم، و لکل واحد منهم رأیه و مبناه فی هذا الباب و ممّن أحسن و أجاد فی هذا الباب العلّامة الطباطبائی قدس سره فنراه قد وضع النقاط علی الحروف و أوضح ما کان غامضا علی المفسرین، و برزت له آراء و نظریات متعدّدة فی هذا الباب استطاع من خلالها أن یرد علی کل الشبهات التی وجهت علی معالم القرآن الکریم و واحدة من تلک المعالم (کیفیّة جمع القرآن) (و فی زمن من جمع القرآن) (و هل وقع تحریف الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۶ فی القرآن) (و هل وقع زیادة أو نقصان فی القرآن) و غیرها من الشبهات و الإثارات حول هذا المنهج المعرفی، نجده قد تصدی لکل تلک الإثارات بأجوبة وافیة مقنعة و من نفس القرآن الکریم، و بإمکانکم (قرّاءنا الأعزاء) مطالعة هذه البحوث فی هذا المجلد للاستفادة منها، معتقدین أن من اللازم علی کل مؤمن قراءة هذه البحوث و التزوّد منها للدفاع عن کیان القرآن الکریم. الإعجاز و التحدی فی القرآن الکریم، ص: ۷

الفصل الأول التحدی بالإعجاز

الفصل الأول التحدی بالإعجاز اعلم: أنّ دعوی القرآن أنها آیة معجزة بهذا التحدّی الذی أبدته هذه الآیة و هی وَ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلی عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَکُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (البقرة/ ۲۳) تنحل بحسب الحقیقة إلی دعویین، و هما دعوی ثبوت أصل الإعجاز و خرق العادة الجاریة و دعوی أنّ القرآن مصداق من مصادیق الإعجاز و معلوم أنّ الدعوی الثانیة تثبت بثبوتها الدعوی الأولی، و القرآن أیضا یکتفی بهذا النمط من البیان و یتحدی بنفسه فیستنتج به کلتا النتیجتین غیر أنّه یبقی الکلام علی کیفیّة تحقّق الإعجاز مع اشتماله علی ما لا تصدقه العادة الجاریة فی الطبیعة من استناد المسببات إلی أسبابها المعهودة المشخصة من غیر استثناء فی حکم السببیّة أو تخلّف و اختلاف فی قانون العلیّة، و القرآن یبیّن حقیقة الأمر و یزیل الشبهة فیه. فالقرآن یشدق فی بیان الأمر من جهتین: الأولی: أنّ الإعجاز ثابت و من مصادیقه القرآن المثبت لأصل الإعجاز و لکونه منه بالتحدّی. الثانیة: أنّه ما هو حقیقة الإعجاز و کیف یقع فی الطبیعة أمر یخرق عادتها و ینقض کلیّتها ... لا ریب فی أنّ القرآن یتحدّی

بالإعجاز فى آيات كثيرة مختلفة مكيّة و مدنية تدلّ جميعها على أنّ القرآن آية معجزة خارقة حتّى أنّ الآية السابقة أعنى قوله تعالى: وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۸ مِثْلِهِ الآية، أى من مثل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم استدلال على كون القرآن معجزة بالتحدّى على إتيان سورة نظيرة سورة من مثل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا أنّه استدلال على النبوّة مستقيما و بلا واسطة، و الدليل عليه قوله تعالى فى أوّلها: وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا و لم يقل و إن كنتم فى ريب من رسالة عبدنا، فجميع التحدّيات الواقعة فى القرآن نحو استدلال على كون القرآن معجزة خارقة من عند اللّه و الآيات المشتملة على التحدّى مختلفة فى العموم و الخصوص و من أعمّها تحديا قوله تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً «۱»، و الآية مكيّة و فيها من عموم التحدّى ما لا يرتاب فيه ذو مسكة. فلو كان التحدّى ببلاغة بيان القرآن و فصاحة أسلوبه فقط لم يتعد التحدى قوما خاصا و هم العرب العرباء من الجاهليين و المخضرمين قبل اختلاط اللسان و فساده، و قد قرع بالآية أسماع الإنس و الجن. و كذا غير البلاغة و الجزالة من كل صفة خاصة اشتمل عليها القرآن كالمعارف الحقيقية و الأخلاق الفاضلة و الأحكام التشريعية و الأخبار المغيبة و معارف أخرى لم يكشف البشر حين النزول عن وجهها النقاب إلى غير ذلك، كل واحد منها مما يعرفه بعض الثقلين دون جميعهم، فإطلاق التحدّى على الثقلين ليس إلّا فى جميع ما يمكن فيه التفاضل فى الصفات. فالقرآن آية للبليغ فى بلاغته و فصاحته، و للحكيم فى حكمته، و للعالم فى علمه و للاجتماعى فى اجتماعه، و للمقننين فى تقنينهم و للسياسيين فى سياستهم، و للحكام فى حكومتهم، و لجميع العالمين فيما لا ينالونه جميعا كالغيب و الاختلاف فى الحكم و العلم و البيان. و من هنا يظهر أنّ القرآن يدعى عموم إعجازه من جميع الجهات من حيث كونه إعجازا لكل فرد من الإنس و الجن من عامّة أو خاصّة أو عالم أو جاهل أو رجل أو امرأة أو فاضل بارع فى فضله أو مفضول إذا كان ذا لب يشعر بالقول، فإن الإنسان مفطور على الشعور بالفضيلة و إدراك الزيادة

(_____ ۱) الإسراء- ۸۸. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۹ و النقيصة فيها، فلكل إنسان أن يتأمّل ما يعرفه من الفضيلة فى نفسه أو فى غيره من أهله ثمّ يقيس ما أدركه منها إلى ما يشتمل عليه القرآن فيقضى بالحق و النصفة، فهل يتأتى للقوّة البشريّة أن تختلق معارف إلهية مبرهنة تقابل ما أتى به القرآن و تماثله فى الحقيقة؟ و هل يمكنها أن تأتى بأخلاق مبيّنة على أساس الحقائق تعادل ما أتى به القرآن فى الصفاء و الفضيلة؟ و هل يمكنها أن تشرّع أحكاما تامّة فقهيّة تحصى جميع أعمال البشر من غير اختلاف يؤدى إلى التناقض مع حفظ روح التوحيد و كلمة التقوى فى كل حكم و نتيجته، و سريان الطهارة فى أصله و فرعه؟ و هل يمكن أن يصدر هذا الإحصاء العجيب و الإتقان الغريب من رجل أمّى لم يتربّ إلّا فى حجر قوم حظهم من الإنسانيّة على مزاياها التى لا تحصى و كمالاتها التى لا تغيّا أن يرتزقوا بالغارات و الغزوات و نهيب الأموال و أن يئدوا البنات و يقتلوا الأولاد خشية إملاق و يفتخروا بالآباء و ينكحوا الأمهات و يتباهوا بالفجور و يذموا العلم و يتظاهروا بالجهل و هم على أنفتهم و حميّتهم الكاذبة أذلاء لكل مستذل و خطفة لكل خاطف فيوما لليمن و يوما للحبشة و يوما للروم و يوما للفرس؟ فهذا حال عرب الحجاز فى الجاهليّة. و هل يجترئ عاقل على أن يأتى بكتاب يدعيه هدى للعالمين ثمّ يودعه أخبارا فى الغيب ممّا مضى و يستقبل و فيمن خلت من الأمم و فيمن سيقدم منهم لا بالواحد و الاثنين فى أبواب مختلفة من القصص و الملاحم و المغيبات المستقبلة ثمّ لا يتخلّف شىء منها عن صراط الصدق؟. و هل يتمكّن إنسان و هو أحد أجزاء نشأة الطبيعة الماديّة، و الدار دار التحوّل و التكامل، أن يداخل فى كل شأن من شئون العالم الإنسانى و يلقى إلى الدنيا معارف و علوما و قوانين و حكما و مواعظ و أمثالا و قصصا فى كل ما دقّ و جل ثمّ لا يختلف حاله فى شىء منها فى الكمال و النقص و هى متدرجة الوجود متفرّقة الإلقاء و فيها ما ظهر ثمّ تكرّر و فيها فروع متفرّعة على أصولها؟ هذا مع ما نراه أن كلّ إنسان لا يبقى من حيث كمال العمل و نقصه على حال واحدة. فالإنسان اللبيب القادر على تعقّل هذه المعانى لا يشكّ فى أنّ هذه المزايا الكليّة و غيرها ممّا يشتمل عليه القرآن الشريف كلها فوق القوّة البشريّة الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۰ و وراء الوسائل الطبيعيّة الماديّة و إن لم

يقدر على ذلك فلم يضل فى إنسانيّته و لم ينس ما يحكم به وجدانه الفطرى أن يراجع فيما لا يحسن اختباره و يجهل مأخذه إلى أهل الخبرة به. فإن قلت: ما الفائدة فى توسعة التحدّى إلى العامّة و التعدّى عن حومة الخاصّة فإنّ العامّة سريعة الانفعال للدعوة و الإجابة لكل صنيعة و قد خضعوا لأمثال الباب و البهاء و القادياني و المسيلمة على أن ما أتوا به و استدلّوا عليه أشبه بالهجر و الهذيان منه بالكلام. قلت: هذا هو السبيل فى عموم الإعجاز و الطريق الممكن فى تمييز الكمال و التقدّم فى أمر يقع فيه التفاضل و السباق، فإن أفهام الناس مختلفة اختلافا ضروريّا و الكمالات كذلك، و النتيجة الضروريّة لهاتين المقدّمتين أن يدرك صاحب الفهم العالى و النظر الصائب و يرجع من هو دون ذلك فهما و نظرا إلى صاحبه، و الفطرة حاكمة و الغريزة قاضية. و لا يقبل شىء ممّا يناله الإنسان بقواه المدركة و يبلغه فهمه العموم و الشمول لكلّ فرد فى كلّ زمان و مكان بالوصول و البلوغ و البقاء إلّا ما هو من سنخ العلم و المعرفة على الطريقة المذكورة، فإن كلّ ما فرض آية معجزة غير العلم و المعرفة فإنّما هو موجود طبيعى أو حادث حسّى محكوم بقوانين المادّة محدود بالزمان و المكان فليس بمشهود إلّا لبعض أفراد الإنسان دون بعض و لو فرض محالا أو كالمحال عمومه لكلّ فرد منه فإنّما يمكن فى مكان دون جميع الأمكنة، و لو فرض اتساعه لكلّ مكان لم يمكن اتساعه لجميع الأزمنة و الأوقات. فهذا ما تحدى به القرآن تحديا عاما لكلّ فرد فى كلّ مكان و فى كل زمان ... الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۱

الفصل الثانى التحدّى بالعلم

الفصل الثانى التحدّى بالعلم و قد تحدّى بالعلم و المعرفة خاصّة بقوله تعالى: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ «۱»، و قوله: وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ «۲»، إلى غير ذلك من الآيات، فإنّ الإسلام كما يعلمه و يعرفه كل من سار فى متن تعليماته من كلّياته التى أعطاها القرآن القرآن و جزئياته التى أرجعها إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بنحو قوله: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا «۳»، و قوله تعالى: لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ «۴»، و غير ذلك متعرض للجليل و الدقيق من المعارف الإلهيّة «الفلسفيّة» و الأخلاق الفاضلة و القوانين الدينيّة الفرعيّة من عبادات و معاملات و سياسات و اجتماعيّات و كل ما يمسه فعل الإنسان و عمله كل ذلك على أساس الفطرة و أصل التوحيد بحيث ترجع التفاصيل إلى أصل التوحيد بالتحليل، و يرجع الأصل إلى التفاصيل بالتركيب. و قد بيّن بقاءها جميعا و انطباقها على صلاح الإنسان بمرور الدهور و كرورها بقوله تعالى: وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ «۵»، و قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ

(_____ ۱) النحل- ۸۹. (۲) الأنعام- ۵۹. (۳) الحشر- ۷. (۴) النساء- ۱۰۵. (۵) فصلت ۴۱- ۴۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۲

لَحافِظُونَ «۱»، فهو كتاب لا يحكم عليه حاكم النسخ و لا يقضى عليه قانون التحوّل و التكامل. فإن قلت: قد استقرّت أنظار الباحثين عن الاجتماع و علماء التقنين اليوم على وجوب تحوّل القوانين الوضعيّة الاجتماعيّة بتحوّل الاجتماع و اختلافها باختلاف الأزمنة و الأوقات و تقدّم المدنيّة و الحضارة. قلت: سيجىء البحث عن هذا الشأن و الجواب عن الشبهة فى تفسير قوله تعالى: كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً «۲»، الآية. و جملة القول و ملخّصه أنّ القرآن يبنى أساس التشريع على التوحيد الفطرى و الأخلاق الفاضلة الغريزية و يدعى أن التشريع يجب أن ينمو من بذر التكوين و الوجود، و هؤلاء الباحثون يبنون نظرهم على تحول الاجتماع مع إلغاء المعنويات من معارف التوحيد و فضائل الأخلاق، فكلمتهم جامدة على سير التكامل الاجتماعى المادى العادم لفضيلة الروح، و كلمة اللّه هى العليا.

(_____ ۱) الحجر- ۹. (۲) البقرة- ۲۱۳.

الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۳

الفصل الثالث التحدّى بمن أنزل عليه القرآن الكريم

الفصل الثالث التحدّى بمن أنزل عليه القرآن الكريم و قد تحدّى بالنبى الأمىّ الذى جاء بالقرآن المعجز فى لفظه و معناه و لم يتعلّم عند معلّم و لم يتربّ عند مربّ بقوله تعالى: قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ «۱»، فقد كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بينهم و هو أحدهم لا يتسامى فى فضل و لا ينطق بعلم حتّى لم يأت بشىء من شعر أو نثر نحوا من أربعين سنة و هو ثلثا عمره لا- يحوز تقدّما و لا يرد عظيمة من عظائم المعالى ثمّ أتى بما أتى به دفعة فأتى بما عجزت عنه فحولهم وكلت دونه ألسنة بلغائهم، ثمّ بثه فى أقطار الأرض فلم يجترئ على معارضته معارض من عالم أو فاضل أو ذى لب و فطانة. و غاية ما أخذوه عليه: أنّه سافر إلى الشام للتجارة فتعلم هذه القصص ممّن هناك من الرهبان و لم تكن أسفاره إلى الشام إلّا مع عمّه أبى طالب قبل بلوغه و إلّا مع ميسرة مولى خديجة و سنّه يومئذ خمسة و عشرون و هو مع من يلازمه فى ليله و نهاره، و لو فرض محالا ذلك فما هذه المعارف و العلوم؟ و من أين هذه الحكم و الحقائق؟ و ممّن هذه البلاغة فى البيان الذى خضعت له الرقاب وكلت دونه الألسن الفصاح؟. و ما أخذوه عليه أنّه كان يقف على قين بمكّة من أهل الروم كان يعمل

(_____ ۱) يونس- ۱۶. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۴

السيوف و يبيعها فأنزل اللّه سبحانه: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ «۱». و ما قالوا عليه أنّه يتعلّم بعض ما يتعلّم من سلمان الفارسى و هو من علماء الفرس عالم بالمذاهب و الأديان مع أنّ سلمان إنّما آمن به فى المدينة، و قد نزل أكثر القرآن بمكّة و فيه من جميع المعارف الكليّة و القصص ما نزلت منها بالمدينة بل أزيد فما الذى زاده إيمان سلمان و صحابته؟. على أنّ من قرأ العهدين و تأمّل ما فيهما ثمّ رجع إلى ما قصّه القرآن من تواريخ الأنبياء السالفين و أممهم رأى أنّ التاريخ غير التاريخ و القصّة غير القصّة، ففيهما عثرات و خطايا لأنبياء اللّه الصالحين تنبو الفطرة، و تتنفر من أن تنسبها إلى المتعارف من صلحاء الناس و عقلائهم و القرآن يبرئهم منها، و فيها أمور أخرى لا يتعلّق بها معرفة حقيقيّة و لا- فضيلة خلقيّة و لم يذكر القرآن منها إلّا ما ينفع الناس فى معارفهم و أخلاقهم و ترك الباقى و هو الأكثر ...

(_____ ۱) النحل- ۱۰۳. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۵

الفصل الرابع تحدّى القرآن بالإخبار عن الغيب

الفصل الرابع تحدّى القرآن بالإخبار عن الغيب و قد تحدّى بالإخبار عن الغيب بآيات كثيرة، منها إخباره بقصص الأنبياء السالفين و أممهم كقوله تعالى: تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا «۱»، الآية، و قوله تعالى بعد قصّة يوسف: ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ «۲»، و قوله تعالى فى قصّة مريم: ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ «۳»، و قوله تعالى: ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ «۴»، إلى غير ذلك من الآيات. و منها الإخبار عن الحوادث المستقبلة كقوله تعالى: غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ «۵»، و قوله تعالى فى رجوع النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى مكّة بعد الهجرة: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ «۶»، و قوله تعالى: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ (_____ ۱)

هود- ۴۹. (۲) يوسف- ۱۰۲. (۳) آل عمران- ۴۴. (۴) مريم- ۳۴. (۵) الروم- ۲- ۳. (۶) القصص- ۸۵. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۶ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا- تَخافُونَ «۱»، الآية، و قوله تعالى: سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ «۲»، و قوله تعالى: وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ «۳»، و قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ «۴»، و آيات أخر كثيرة فى وعد المؤمنين و وعيد كفّار مكّة و مشركيها. و من هذا الباب آيات أخر فى الملاحم نظير قوله تعالى: وَ حَرامٌ

عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ. حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ «۵»، و قوله تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ «۶»، و قوله تعالى: قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ «۷»، و من هذا الباب قوله تعالى: وَ أَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ «۸»، و قوله تعالى: وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ «۹»، و قوله تعالى: وَ الْجِبالَ أَوْتاداً «۱۰»، ممّا يبتنى حقيقة القول فيها على حقائق علميّة مجهولة عند النزول حتّى كشف الغطاء عن وجهها بالأبحاث العلميّة التى وفّق الإنسان لها فى هذا العصر. و من هذا الباب (و هو من مختصّات هذا التفسير الباحث عن آيات القرآن باستنطاق بعضها ببعض و استشهاد بعضها على بعض) ما فى سورة المائدة من قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ

(_____ ۱) الفتح- ۲۷. (۲) الفتح- ۱۵. (۳) المائدة- ۷۰. (۴) الحجر- ۹. (۵) الأنبياء ۹۵- ۹۷. (۶) النور- ۵۵. (۷) الأنعام- ۶۵. (۸) الحجر- ۲۲. (۹) الحجر- ۱۹. (۱۰) النبأ- ۷.

الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۷ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ «۱»، الآية، و ما فى سورة يونس من قوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ «۲»، إلى آخر الآيات، و ما فى سورة الروم من قوله تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها «۳»، الآية، إلى غير ذلك من الآيات التى تنبئ عن الحوادث العظيمة التى تستقبل الأمة الإسلاميّة أو الدنيا عامة بعد عهد نزول القرآن (_____ ۱)

المائدة- ۵۴. (۲) يونس- ۴۷. (۳) الروم- ۳۰. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۸

الفصل الخامس تحدّى القرآن بعدم الاختلاف فيه

الفصل الخامس تحدّى القرآن بعدم الاختلاف فيه و قد تحدّى أيضا بعدم وجود الاختلاف فيه، قال تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «۱» فإنّ من الضرورى أنّ النشأة نشأة المادّة و القانون الحاكم فيها قانون التحوّل و التكامل فما من موجود من الموجودات التى هى أجزاء هذا العالم إلّا و هو متدرّج الوجود متوجّه من الضعف إلى القوّة و من النقص إلى الكمال فى ذاته و جميع توابع ذاته و لواحقه من الأفعال و الآثار و من جملتها الإنسان الذى لا يزال يتحوّل و يتكامل فى وجوده و أفعاله و آثاره التى منها آثاره التى يتوسّل إليها بالفكر و الإدراك، فما من واحد منّا إلّا و يرى نفسه كل يوم أكمل من أمس و لا يزال يعثر فى الحين الثانى على سقطات فى أفعاله و عثرات فى أقواله الصادرة منه فى الحين الأوّل، هذا أمر لا ينكره من نفسه إنسان ذو شعور. و هذا الكتاب جاء به النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نجوما و قرأه على الناس قطعا قطعا فى مدّة ثلاث و عشرين سنة فى أحوال مختلفة و شرائط متفاوتة فى مكّة و المدينة فى الليل و النهار و الحضر و السفر و الحرب و السلم فى يوم العسرة و فى يوم الغلبة و يوم الأمن و يوم الخوف، و لإلقاء المعارف الإلهيّة و تعليم الأخلاق الفاضلة و تقنين الأحكام الدينيّة فى جميع أبواب الحاجة و لا يوجد فيه أدنى اختلاف فى النظم المتشابه، كتابا متشابها مثانى و لم يقع فى المعارف التى

(_____ ۱) النساء- ۸۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۹ ألقاها و الأصول التى أعطاها اختلاف بتناقض بعضها مع بعض و تنافى شىء منها مع آخر، فالآية تفسّر الآية و البعض يبيّن البعض، و الجملة تصدّق الجملة كما قال أمير المؤمنين على عليه السّلام (ينطق بعضه ببعض و يشهد بعضه على بعض) «۱» و لو كان من عند غير اللّه لاختلف النظم فى الحسن و البهاء و القول فى الشداقة و البلاغة و المعنى من حيث الفساد و الصحّة و من حيث الإتقان و المتانة. فإن قلت: هذه مجرّد دعوى لا تتكى على دليل و قد أخذ على القرآن مناقضات و إشكالات جمة ربّما ألّف فيه التأليفات، و هى إشكالات لفظيّة ترجع إلى قصوره فى جهات البلاغة و مناقضات معنويّة تعود إلى خطئه فى آرائه و أنظاره و تعليماته، و قد أجاب عنها المسلمون بما لا يرجع فى الحقيقة إلّا إلى التأويلات التى يحترزها الكلام الجارى على سنن الاستقامة و

ارتضاء الفطرة السليمة. قلت: ما أشير إليه من المناقضات و الإشكالات موجودة فى كتب التفسير و غيرها مع أجوبتها و منها هذا الكتاب، فالإشكال أقرب إلى الدعوى الخالية عن البيان. و لا تكاد تجد فى هذه المؤلفات التى ذكرها المستشكل شبهة أوردوها أو مناقضة أخذوها إلّا و هى مذكورة فى مسفورات المفسّرين مع أجوبتها فأخذوا الإشكالات و جمعوها و رتبوها و تركوا الأجوبة و أهملوها، و نعم ما قيل: لو كانت عين الحب متّهمة فعين البغض أولى بالتهمة. فإن قلت: فما تقول فى النسخ الواقع فى القرآن و قد نص عليه القرآن نفسه فى قوله: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها «۲»، و قوله: وَ إِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ «۳»، و هل النسخ إلّا اختلاف فى النظر لو سلّمنا أنّه ليس من قبيل المناقضة فى القول؟.

(_____ ۱) نهج البلاغة. (۲) البقرة- ۱۰۶. (۳) النحل- ۱۰۱. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۲۰ قلت: النسخ كما أنّه ليس من المناقضة فى القول و هو ظاهر كذلك ليس من قبيل الاختلاف فى النظر و الحكم و إنّما هو ناش من الاختلاف فى المصداق من حيث قبوله انطباق الحكم يوما لوجود مصلحته فيه و عدم قبوله الانطباق يوما آخر لتبدّل المصلحة من مصلحة أخرى توجب حكما آخر، و من أوضع الشهود على هذا أنّ الآيات المنسوخة الأحكام فى القرآن مقترنة بقرائن لفظيّة تومئ إلى أن الحكم المذكور فى الآية سينسخ كقوله تعالى: يَأْتِينَ الْفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا «۱» (انظر إلى التلويح الذى تعطيه الجملة الأخيرة) و كقوله تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً إلى أن قال فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً إلى أن قال فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ «۲» حيث تمّم الكلام بما يشعر بأن الحكم مؤجّل (_____ ... ۱) النساء- ۱۴. (۲) البقرة- ۱۰۹. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۲۱

الفصل السادس التحدّى بالبلاغة

الفصل السادس التحدّى بالبلاغة و قد تحدّى القرآن بالبلاغة كقوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ «۱»، و الآية مكيّة، و قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ «۲»، و الآية أيضا مكيّة و فيها التحدّى بالنظم و البلاغة فإنّ ذلك هو الشأن الظاهر من شئون العرب المخاطبين بالآيات يومئذ، فالتاريخ لا يرتاب أنّ العرب العرباء بلغت من البلاغة فى الكلام مبلغا لم يذكره التاريخ لواحدة من الأمم المتقدّمة عليهم و المتأخرة عنهم و وطئوا موطئا لم تطأه أقدام غيرهم فى كمال البيان و جزالة النظم و وفاء اللفظ و رعاية المقام و سهولة المنطق. و قد تحدّى عليهم القرآن بكلّ تحدّ ممكن ممّا يثير الحمية و يوقد نار الأنفة و العصبيّة، و حالهم فى الغرور ببضاعتهم و الاستكبار عن الخضوع للغير فى صناعتهم ممّا لا يرتاب فيه، و قد طالت مدّة التحدّى و تمادى زمان الاستنهاض فلم يجيبوه إلّا بالتجافى و لم يزدهم إلّا العجز و لم يكن منهم إلّا الاستخفاء و الفرار، كما قال تعالى: أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ (_____ ۱) هود- ۱۳- ۱۴. (۲) يونس- ۳۸- ۳۹. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۲۲ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ «۱». و قد مضى من القرون و الأحقاب ما يبلغ أربعة عشر قرنا و لم يأت بما يناظره آت و لم يعارضه أحد بشيء إلّا أخزى نفسه و افتضح فى أمره. و قد ضبط النقل بعض هذه المعارضات و المناقشات، فهذا مسيلمة عارض سورة الفيل بقوله: «الفيل ما الفيل و ما أدراك ما الفيل له ذنب و بيل و خرطوم طويل» و فى كلام له فى الوحى يخاطب السجاح النبية «فنولجه فيكن إيلاجا، و نخرجه منكن إخراجا» فانظر إلى هذه الهذيانات و اعتبر، و هذه سورة عارض بها الفاتحة بعض النصارى «الحمد للرحمن ربّ الأكوان، الملك الديان لك العبادة و بك المستعان اهدنا

صراط الإيمان» إلى غير ذلك من التقوّلات. فإن قلت: ما معنى كون التأليف الكلامى بالغا إلى مرتبة معجزة للإنسان و وضع الكلام ممّا سمحت به قريحة الإنسان؟ فكيف يمكن أن يترشّح من القريحة ما لا تحيط به و الفاعل أقوى من فعله و منشئ الأثر محيط بأثره؟. و بتقريب آخر، الإنسان هو الذى جعل اللفظ علامة دالّة على المعنى لضرورة الحاجة الاجتماعيّة إلى تفهيم الإنسان ما فى ضميره لغيره فخاصّيّة الكشف عن المعنى فى اللفظ خاصّيّة وضعيّة اعتباريّة مجعولة للإنسان، و من المحال أن يتجاوز هذه الخاصّة المترشّحة عن قريحة الإنسان حد قريحته فتبلغ مبلغا لا تسعه طاقة القريحة، فمن المحال حينئذ أن يتحقّق فى اللفظ نوع من الكشف لا تحيط به القريحة و إلّا كانت غير الدلالة الوضعيّة الاعتباريّة، مضافا إلى أن التراكيب الكلاميّة لو فرض أن بينها تركيبا بالغا حد الإعجاز كان معناه أنّ كل معنى من المعانى المقصودة ذو تراكيب كلامية مختلفة فى النقص و الكمال و البلاغة و غيرها، و بين تلك التراكيب تركيب هو أرقاها و أبلغها لا تسعه طاقة البشر، و هو التركيب المعجز، و لازمه أن يكون فى كلّ معنى مطلوب تركيب واحد إعجازى مع أنّ القرآن كثيرا ما يورد فى المعنى الواحد بيانات مختلفة و تراكيب متفرّقة، و هو فى

(_____ ۱) هود- ۵. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۲۳ القصص واضح لا ينكر و لو كانت تراكيبه معجزة لم يوجد منها فى كلّ معنى مقصود إلّا واحد لا غير. قلت: هاتان الشبهتان و ما شاكلهما هى الموجبة لجمع من الباحثين فى إعجاز القرآن فى بلاغته أن يقولوا بالصرف، و معنى الصرف أنّ الإتيان بمثل القرآن أو سورة واحدة منه محال على البشر لمكان آيات التحدّى و ظهور العجز من أعداء القرآن منذ قرون، و لكن لا لكون التأليفات الكلاميّة التى فيها فى نفسها خارجة عن طاقة الإنسان و فائقة على القوّة البشريّة، مع كون التأليفات جميعا أمثالا لنوع النظم الممكن للإنسان، بل لأنّ اللّه سبحانه يصرف الإنسان عن معارضتها و الإتيان بمثلها بالإرادة الإلهيّة الحاكمة على إرادة الإنسان حفظا لآية النبوّة و وقاية لحمى الرسالة. و هذا قول فاسد لا ينطبق على ما يدلّ عليه آيات التحدّى بظاهرها كقوله: قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ «۱»، الآية، فإنّ الجملة الأخيرة ظاهرة فى أنّ الاستدلال بالتحدّى إنّما هو على كون القرآن نازلا لا كلاما تقوّله رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إنّ نزوله إنّما هو بعلم اللّه لا بإنزال الشياطين كما قال تعالى: أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ «۲»، و قوله تعالى: وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ. وَ ما يَنْبَغِي لَهُمْ وَ ما يَسْتَطِيعُونَ. إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ «۳»، و الصرف الذى يقولون به إنّما يدلّ على صدق الرسالة بوجود آية هى الصرف، لا على كون القرآن كلاما للّه نازلا من عنده، و نظير هذه الآية الآية الأخرى، و هى قوله: قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ «۴»، الآية، فإنّها ظاهرة فى أنّ الذى يوجب استحالة إتيان البشر بمثل القرآن و ضعف قواهم و قوى كل من يعينهم على

(_____ ۱) هود- ۱۳ و ۱۴. (۲) الطور- ۳۴. (۳) الشعراء- ۲۱۲. (۴) يونس- ۳۹. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۲۴ ذلك من تحمّل هذا الشأن هو أنّ للقرآن تأويلا لم يحيطوا بعلمه فكذّبوه، و لا يحيط به علما إلّا اللّه فهو الذى يمنع المعارض عن أن يعارضه لا أنّ اللّه سبحانه يصرفهم عن ذلك مع تمكّنهم منه لو لا الصرف بإرادة من اللّه تعالى. و كذا قوله تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «۱»، الآية، فإنّه ظاهر فى أنّ الذى يعجز الناس عن الإتيان بمثل القرآن إنّما هو كونه فى نفسه على صفة عدم الاختلاف لفظاً و معنى و لا يسمح لمخلوق أن يأتى بكلام غير مشتمل على الاختلاف، لا أنّ اللّه صرفهم عن مناقضته بإظهار الاختلاف الذى فيه هذا، فما ذكروه من أنّ إعجاز القرآن بالصرف كلام لا ينبغى الركون إليه. و أمّا الإشكال باستلزام الإعجاز من حيث البلاغة المحال بتقريب أنّ البلاغة من صفات الكلام الموضوع و وضع الكلام من آثار القريحة الإنسانيّة فلا يمكن أن يبلغ من الكمال حدّا لا تسعه طاقة القريحة و هو مع ذلك معلول لها لا لغيرها، فالجواب عنه أن الذى يستند من الكلام إلى قريحة الإنسان إنّما هو كشف اللفظ المفرد عن معناه و أمّا سرد الكلام و نضد الجمل بحيث يحاكى جمال المعنى المؤلف و هيئته على ما هو عليه فى الذهن بطبعه حكاية تامّة أو

ناقصة و إراءة واضحة أو خفيّة، و كذا تنظيم الصورة العلمية فى الذهن بحيث يوافق الواقع فى جميع روابطه و مقدّماته و مقارناته و لواحقه أو فى كثير منها أو فى بعضها دون بعض فإنّما هو أمر لا يرجع إلى وضع الألفاظ بل إلى نوع مهارة فى صناعة البيان و فن البلاغة تسمح به القريحة فى سرد الألفاظ و نظم الأدوات اللفظيّة و نوع لطف فى الذهن يحيط به القوّة الذاهنة على الواقعة المحكيّة بأطرافها و لوازمها و متعلّقاتها. فههنا جهات ثلاث يمكن أن تجتمع فى الوجود أو تفترق فربّما أحاط إنسان بلغة من اللغات فلا يشذّ عن علمه لفظ لكنّه لا يقدر على التهجى و التكلّم، و ربّما تمهّر الإنسان فى البيان و سرد الكلام لكن لا علم له

(_____ ۱) النساء- ۸۲. الإعجاز و التحدى فى

القرآن الكريم، ص: ۲۵ بالمعارف و المطالب فيعجز عن التكلّم فيها بكلام حافظ لجهات المعنى حاك لجمال صورته التى هو عليها فى نفسه، و ربّما تبحّر الإنسان فى سلسلة من المعارف و المعلومات و لطفت قريحته و رقّت فطرته لكن لا يقدر على الإفصاح عن ما فى ضميره، و عىّ عن حكاية ما يشاهده من جمال المعنى و منظره البهيج. فهذه أمور ثلاثة: أوّلها راجع إلى وضع الإنسان بقريحته الاجتماعية و الثانى و الثالث راجعان إلى نوع من لطف القوّة المدركة، و من البيّن أنّ إدراك القوى المدركة منا محدودة مقدّرة لا تقدر على الإحاطة بتفاصيل الحوادث الخارجيّة و الأمور الواقعيّة بجميع روابطها، فلسنا على أمن من الخطأ قط فى وقت من الأوقات، و مع ذلك فالاستكمال التدريجى الذى فى وجودنا أيضا يوجب الاختلاف التدريجى فى معلوماتنا أخذا من النقص إلى الكمال فأى خطيب أشدق و أى شاعر مفلق فرضته لم يكن ما يأتيه فى أوّل أمره موازنا لما تسمح به قريحته فى أواخر أمره؟ فلو فرضنا كلاما إنسانيّا أى كلام فرضناه لم يكن فى مأمن من الخطأ لفرض عدم اطلاع متكلمه بجميع أجزاء الواقع و شرائطه (أولا) و لم يكن على حدّ كلامه السابق و لا على زنة كلامه اللاحق بل و لا أوّله يساوى آخره و إن لم نشعر بذلك لدقّة الأمر، لكن حكم التحول و التكامل عام (ثانيا) و على هذا فلو عثرنا على كلام فصل لا هزل فيه (و جدّ الهزل هو القول بغير علم محيط) و لا اختلاف يعتريه لم يكن كلاما بشريّا، و هو الذى يفيده القرآن بقوله: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «۱» الآية، و قوله تعالى: وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ. وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ. إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ. وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ «۲»، انظر إلى موضع القسم بالسماء و الأرض المتغيرتين و المعنى المقسم به فى عدم تغيّره و اتكائه على حقيقة ثابتة هى تأويله (و سيأتى ما يراد فى القرآن من لفظ التأويل) و قوله تعالى: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ «۳»، و قوله تعالى: وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا (_____ ۱) النساء-

۸۲. (۲) الطارق- ۱۴. (۳) البروج- ۲۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۲۶ لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ «۱» و قوله تعالى: فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ. وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ. لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ «۲»، فهذه الآيات و نظائرها تحكى عن اتكاء القرآن فى معانيه على حقائق ثابتة غير متغيّرة و لا متغيّر ما يتكى عليها. إذا عرفت ما مرّ علمت أن استناد وضع اللغة إلى الإنسان لا يقتضى أن لا يوجد تأليف كلامى فوق ما يقدر عليه الإنسان الواضع له، و ليس ذلك إلّا كالقول بأنّ القين الصانع للسيوف يجب أن يكون أشجع ممن يستعملها و واضع النرد و الشطرنج يجب أن يكون أمهر ممن يلعب بهما و مخترع العود يجب أن يكون أقوى ممن يضرب بها. فقد تبيّن من ذلك كلّه أنّ البلاغة التامّة معتمدة على نوع من العلم المطابق للواقع من جهة مطابقة اللفظ للمعنى و من جهة مطابقة المعنى المعقول للخارج الذى تحكيه الصورة الذهنيّة. أمّا اللفظ فأن يكون الترتيب الذى بين أجزاء اللفظ بحسب الوضع مطابقا للترتيب الذى بين أجزاء المعنى المعبّر عنه باللفظ بحسب الطبع فيطابق الوضع الطبع كما قال الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الإعجاز. و أمّا المعنى فأن يكون فى صحّته و صدقه معتمدا على الخارج الواقع بحيث لا يزول عمّا هو عليه من الحقيقة، و هذه المرتبة هى التى تتكى عليها المرتبة السابقة، و كم من هزل بليغ فى هزليّته لكنّه لا يقاوم الجد، و كم من كلام بليغ مبنى على الجهالة لكنّه لا يعارض و لا يسعه أن يعارض الحكمة، و الكلام الجامع بين عذوبة اللفظ و جزالة الأسلوب و بلاغة المعنى و حقيقة الواقع هو أرقى الكلام. و إذا كان الكلام قائما على أساس الحقيقة و منطبق المعنى عليها تمام الانطباق لم يكذّب الحقائق الأخر و لم تكذبه فإن

الحق مؤتلف الأجزاء (_____ ۱) الزخرف- ۴. (۲) الواقعة- ۷۹. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۲۷ و متّحد الأركان لا يبطل حق حقا، و لا يكذب صدق صدقا، و الباطل هو الذى ينافى الباطل و ينافى الحق، انظر إلى مغزى قوله سبحانه و تعالى: فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ «۱»، فقد جعل الحق واحدا لا- تفرق فيه و لا- تشتت، و انظر إلى قوله تعالى: وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ «۲»، فقد جعل الباطل متشتّتا و مشتّتا و متفرّقا و مفرقا. و إذا كان الأمر كذلك فلا يقع بين أجزاء الحق اختلاف بل نهاية الائتلاف، يجر بعضه إلى بعض، و ينتج بعضه البعض كما يشهد بعضه على بعض و يحكى بعضه البعض. و هذا من عجيب أمر القرآن فإن الآية من آياته لا تكاد تصمت عن الدلالة و لا تعقم عن الإنتاج، كلما ضمت آية إلى آية مناسبة أنتجت حقيقة من أبكار الحقائق ثمّ الآية الثالثة تصدقها و تشهد بها، هذا شأنه و خاصّته و سترى فى خلال البيانات فى هذا الكتاب نبذا من ذلك على أنّ الطريق متروك غير مسلوك و لو أنّ المفسّرين ساروا هذا المسير لظهر لنا إلى اليوم ينابيع من بحاره العذبة و خزائن من أثقاله النفيسة. فقد اتّضح بطلان الإشكال من الجهتين جميعا فإنّ أمر البلاغة المعجزة لا يدور مدار اللفظ حتّى يقال إنّ الإنسان هو الواضع للكلام فكيف لا يقدر على أبلغ الكلام و أفصحه و هو واضح، أو يقال إن أبلغ التركيبات المتصوّرة تركيب واحد من بينها فكيف يمكن التعبير عن معنى واحد بتركيبات متعدّدة مختلفة السياق و الجميع فائق قدرة البشر بالغ حد الإعجاز بل المدار هو المعنى الحافظ لجميع جهات الذهن و الخارج «۳» ... لا شبهة فى دلالة القرآن على ثبوت الآية المعجزة و تحققها بمعنى الأمر الخارق للعادة الدالّ على تصرف ما وراء الطبيعة فى عالم الطبيعة و نشأة المادّة لا بمعنى الأمر المبطل لضرورة العقل (_____. ۱) يونس- ۳۲. (۲) الأنعام- ۱۵۳. (۳) راجع المبحث فى الميزان المجلد الأول ص ۶۱. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۲۸ و ما تمحله بعض المنتسبين إلى العلم من تأويل الآيات الدالّة على ذلك توفيقا بينها و بين ما يتراءى من ظواهر الأبحاث الطبيعيّة «العلميّة» اليوم تكلّف مردود إليه. و الذى يفيده القرآن الشريف فى معنى خارق العادة و إعطاء حقيقته نذكره فى فصول من الكلام. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۲۹

الفصل الأول تصديق القرآن لقانون العليّة العامّة

الفصل الأول تصديق القرآن لقانون العليّة العامّة إنّ القرآن يثبت للحوادث الطبيعيّة أسبابا و يصدق قانون العليّة العامّة كما يثبته ضرورة العقل و تعتمد عليه الأبحاث العلميّة و الأنظار الاستدلاليّة، فإنّ الإنسان مفطور على أن يعتقد لكل حادث مادى علّة موجبة من غير تردّد و ارتياب. و كذلك العلوم الطبيعيّة و سائر الأبحاث العلميّة تعلل الحوادث و الأمور المربوطة بما تجده من أمور أخرى صالحة للتعليل، و لا- نعنى بالعلّة إلّا أن يكون هناك أمر واحد أو مجموع أمور إذا تحقّقت فى الطبيعة مثلا- تحقّق عندها أمر آخر نسميه المعلول بحكم التجارب كدلالة التجربة على أنّه كلّما تحقّق احتراق لزم أن يتحقّق هناك قبله علّة موجبة له من نار أو حركة أو اصطكاك أو نحو ذلك، و من هنا كانت الكليّة و عدم التخلّف من أحكام العليّة و المعلوليّة و لوازمهما. و تصديق هذا المعنى ظاهر من القرآن فيما جرى عليه و تكلّم فيه من موت و حياة و رزق و حوادث أخرى علوية سماويّة أو سفليّة أرضيّة على أظهر وجه، و إن كان يسندها جميعا بالآخرة إلى اللّه سبحانه لفرض التوحيد. فالقرآن يحكم بصحة قانون العليّة العامّة بمعنى أنّ سببا من الأسباب إذا تحقّق مع ما يلزمه و يكتنف به من شرائط التأثير من غير مانع لزمه وجود مسببه مترتبا عليه بإذن اللّه سبحانه و إذا وجد المسبّب كشف ذلك عن تحقّق سببه لا محالة ... الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۳۰

الفصل الثانى إثبات القرآن ما يخرق العادة

الفصل الثانى إثبات القرآن ما يخرق العادة ثمّ إنّ القرآن يقتص و يخبر عن جملة من الحوادث و الوقائع لا يساعد عليه جريان العادة

المشهودة فى عالم الطبيعة على نظام العلّة و المعلول الموجود، و هذه الحوادث الخارقة للعادة هى الآيات المعجزة التى ينسبها إلى عدّة من الأنبياء الكرام كمعجزات نوح و هود و صالح و إبراهيم و لوط و داود و سليمان و موسى و عيسى و محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإنّها أمور خارقة للعادة المستمرة فى نظام الطبيعة. لكن يجب أن يعلم أنّ هذه الأمور و الحوادث و إن أنكرتها العادة و استبعدتها إلّا أنّها ليست أمورا مستحيلة بالذات بحيث يبطلها العقل الضرورى كما يبطل قولنا الإيجاب و السلب يجتمعان معا و يرتفعان معا من كل جهة و قولنا الشىء يمكن أن يسلب عن نفسه و قولنا: الواحد ليس نصف الاثنين و أمثال ذلك من الأمور الممتنعة بالذات، كيف و عقول جم غفير من الملّيين منذ أعصار قديمة تقبل ذلك و ترتضيه من غير إنكار ورد و لو كانت المعجزات ممتنعة بالذات لم يقبلها عقل عاقل و لم يستدلّ بها على شىء و لم ينسبها أحد إلى أحد. على أنّ أصل هذه الأمور أعنى المعجزات ليس ممّا تنكره عادة الطبيعة بل هى ممّا يتعاوره نظام المادّة كل حين بتبديل الحى إلى ميّت و الميّت إلى الحى و تحويل صورة إلى صورة و حادثة إلى حادثة و رخاء إلى بلاء و بلاء إلى رخاء، و إنّما الفرق بين صنع العادة و بين المعجزة الخارقة هو الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۳۱ أنّ الأسباب الماديّة المشهودة التى بين أيدينا إنّما تؤثر أثرها مع روابط مخصوصة و شرائط زمانيّة و مكانيّة خاصّة تقضى بالتدريج فى التأثير، مثلا العصا و إن أمكن أن تصير حيّة تسعى و الجسد البالى و إن أمكن أن يصير إنسانا حيّا لكن ذلك إنّما يتحقّق فى العادة بعلل خاصّة و شرائط زمانيّة و مكانيّة مخصوصة تنتقل بها المادّة من حال إلى حال و تكتسى صورة بعد صورة حتّى تستقر و تحل بها الصورة الأخيرة المفروضة على ما تصدّقه المشاهدة و التجربة لا مع أى شرط اتّفق أو من غير علّة أو بإرادة مريد كما هو الظاهر من حال المعجزات و الخوارق التى يقصها القرآن. و كما أنّ الحس و التجربة الساذجين لا يساعدان على تصديق هذه الخوارق للعادة كذلك النظر العلمى الطبيعى، لكونه معتمدا على السطح المشهود من نظام العلّة و المعلول الطبيعيين، أعنى به السطح الذى يستقرّ عليه التجارب العلمية اليوم و الفرضيّات المعلّلة للحوادث الماديّة. إلّا أن حدوث الحوادث الخارقة للعادة إجمالا ليس فى وسع العلم إنكاره و الستر عليه، فكم من أمر عجيب خارق للعادة يأتى به أرباب المجاهدة و أهل الارتياض كل يوم تمتلى به العيون و تنشره النشريات و يضبطه الصحف و المسفورات بحيث لا يبقى لذى لب فى وقوعها شك و لا فى تحقّقها ريب. و هذا هو الذى ألجأ الباحثين فى الآثار الروحيّة من علماء العصر أن يعللوه بجريان أمواج مجهولة الكتريسية مغناطيسيّة فافترضوا أن الارتياضات الشاقّة تعطى للإنسان سلطة على تصريف أمواج مرموزة قويّة تملكه أو تصاحبه إرادة و شعور و بذلك يقدر على ما يأتى به من حركات و تحريكات و تصرفات عجيبة فى المادّة خارقة للعادة بطريق القبض و البسط و نحو ذلك. و هذه الفرضية لو تمت و اطردت من غير انتقاض لأدّت إلى تحقّق فرضيّة جديدة وسيعة تعلل جميع الحوادث المتفرقة التى كانت تعلّلها جميعا أو تعلل بعضها الفرضيات القديمة على محور الحركة و القوّة و لساقت جميع الحوادث الماديّة إلى التعلل و الارتباط بعلّة واحدة طبيعية. فهذا قولهم و الحق معهم فى الجملة إذ لا معنى لمعلول طبيعى لا علّة الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۳۲ طبيعية له مع فرض كون الرابطة طبيعيّة محفوظة، و بعبارة أخرى إنّا لا نعنى بالعلّة الطبيعيّة إلّا أن تجتمع عدّة موجودات طبيعية مع نسب و روابط خاصّة فيتكون منها عند ذلك موجود طبيعى جديد حادث متأخر عنها مربوط بها بحيث لو انتقض النظام السابق عليه لم يحدث و لم يتحقّق وجوده. و أمّا القرآن الكريم فإنّه و إن لم يشخّص هذه العلّة الطبيعيّة الأخيرة التى تعلّل جميع الحوادث الماديّة العاديّة و الخارقة للعادة (على ما نحسبه) بتشخيص اسمه و كيفيّة تأثيره لخروجه عن غرضه العام إلّا أنّه مع ذلك يثبت لكل حادث مادى سببا ماديا بإذن اللّه تعالى، و بعبارة أخرى يثبت لكل حادث مادى مستند فى وجوده إلى اللّه سبحانه (و الكل مستند) مجرى ماديا و طريقا طبيعيا به يجرى فيض الوجود منه تعالى إليه. قال تعالى: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً. وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً «۱»، فإن صدر الآية يحكم بالإطلاق من غير تقييد أنّ كل من اتقى اللّه و توكّل عليه و إن كانت الأسباب العادية المحسوبة عندنا أسبابا تقضى بخلافه و تحكم بعدمه فإنّ اللّه سبحانه حسبه فيه و هو كائن لا محالة، كما يدلّ عليه أيضا إطلاق قوله تعالى: وَ إِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ «۲»، و قوله تعالى: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ

«۳»، و قوله تعالى: أَ لَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ «۴». ثمّ الجملة التالية و هى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ «۵» يعلّل إطلاق الصدر، و فى هذا المعنى قوله: وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ «۶»، و هذه جملة مطلقة غير مقيّدة بشىء البتة، فللّه سبحانه سبيل إلى كلّ حادث تعلقت به مشيئته و إرادته و إن كانت السبل العادية و الطرق المألوفة مقطوعة منتفية هناك.

(۱) الطلاق- ۳. (۲) البقرة- ۱۸۶. (۳) المؤمن- ۶۰. (۴) الزمر- ۳۶. (۵) الطلاق- ۳. (۶) يوسف- ۲۱. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۳۳ و هذا يحتمل وجهين: أحدهما أن يتوسل تعالى إليه من غير سبب مادى و علّة طبيعيّة بل بمجرّد الإرادة وحدها، و ثانيهما أن يكون هناك سبب طبيعى مستور عن علمنا يحيط به اللّه سبحانه و يبلغ ما يريده من طريقه إلّا أن الجملة التالية من الآية المعللة لما قبلها أعنى قوله تعالى قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً، تدلّ على ثانى الوجهين فإنّها تدلّ على أن كلّ شىء من المسببات أعم مما تقتضيه الأسباب العادية أو لا تقتضيه فإنّ له قدرا قدره اللّه سبحانه عليه، و ارتباطات مع غيره من الموجودات و اتصالات وجودية مع ما سواه، للّه سبحانه أن يتوسّل منها إليه و إن كانت الأسباب العادية مقطوعة عنه غير مرتبطة به إلّا أنّ هذه الاتصالات و الارتباطات ليست مملوكة للأشياء أنفسها حتّى تطيع فى حال و تعصى فى أخرى بل مجعولة بجعله تعالى مطيعة منقادة له. فالآية تدلّ على أنّه تعالى جعل بين الأشياء جميعها ارتباطات و اتصالات له أن يبلغ إلى كلّ ما يريد من أى وجه شاء و ليس هذا نفيا للعليّة و السببيّة بين الأشياء بل إثبات أنّها بيد اللّه سبحانه يحولها كيف شاء و أراد، ففى الوجود عليّة و ارتباط حقيقى بين كل موجود و ما تقدّمه من الموجودات المنتظمة غير أنّها ليست على ما نجده بين ظواهر الموجودات بحسب العادة (و لذلك نجد الفرضيات العلمية الموجودة قاصرة عن تعليل جميع الحوادث الوجوديّة) بل على ما يعلمه اللّه تعالى و ينظمه. و هذه الحقيقة هى التى تدلّ عليها آيات القدر كقوله تعالى: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ «۱»، و قوله تعالى: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ «۲»، و قوله تعالى: وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً «۳»، و قوله تعالى: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدى «۴»، و كذا قوله تعالى: ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها «۵»، و قوله تعالى: ما أَصابَ مِنْ

(۱) الحجر- ۲۱. (۲) القمر- ۴۹. (۳) الفرقان- ۲. (۴) الأعلى- ۳. (۵) الحديد- ۲۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۳۴ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ «۱»، فإنّ الآية الأولى و كذا بقيّة الآيات تدلّ على أن الأشياء تنزل من ساحة الإطلاق إلى مرحلة التعين و التشخص بتقدير منه تعالى و تحديد يتقدّم على الشىء و يصاحبه و لا معنى لكون الشىء محدودا مقدرا فى وجوده إلّا أن يتحدّد و يتعيّن بجميع روابطه التى مع سائر الموجودات و الموجود المادى مرتبط بمجموعة من الموجودات الماديّة الأخرى التى هى كالقالب الذى يقلب به الشىء و يعيّن وجوده و يحدّده و يقدّره فما من موجود مادى إلّا و هو متقدّر مرتبط بجميع الموجودات الماديّة التى تتقدّمه و تصاحبه فهو معلول لآخر مثله لا محالة. و يمكن أن يستدل أيضا على ما مرّ بقوله تعالى: ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ «۲»، و قوله تعالى: ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ «۳»، فإن الآيتين بانضمام ما مرّت الإشارة إليه من أنّ الآيات القرآنيّة تصدّق قانون العليّة العام، تنتج المطلوب. و ذلك أنّ الآية الأولى تعمم الخلقة لكلّ شىء فما من شىء إلّا و هو مخلوق للّه عزّ شأنه، و الآية الثانية تنطق بكون الخلقة و الإيجاد على وتيرة واحدة و نسق منتظم من غير اختلاف يؤدى إلى الهرج و الجزاف و القرآن كما عرفت أنه يصدق قانون العليّة العام فى ما بين الموجودات الماديّة، ينتج أنّ نظام الموجود فى الموجودات الماديّة سواء كانت على جرى العادة أو خارقة لها على صراط مستقيم غير متخلف و وتيرة واحدة فى استناد كلّ حادث فيه إلى العلّة المتقدّمة عليه الموجبة له. و من هنا يستنتج أنّ الأسباب العادية التى ربما يقع التخلف بينها و بين مسبباتها ليست بأسباب حقيقية بل هناك أسباب حقيقيّة مطردة غير متخلفة الأحكام و الخواص كما ربّما يؤيده التجارب العلمى فى جراثيم الحياة و فى خوارق العادة كما مرّ.

(۱) التغابن- ۱۱. (۲) المؤمن- ۶۲.

(۳) هود- ۵۶. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۳۵

الفصل الثالث القرآن فى إسناده إلى العلّة الماديّة يسند إلى اللّه

الفصل الثالث القرآن فى إسناده إلى العلّة الماديّة يسند إلى اللّه ثمّ إنّ القرآن كما يثبت بين الأشياء العليّة و المعلوليّة و يصدق سببيّة البعض للبعض كذلك يسند الأمر فى الكل إلى اللّه سبحانه فيستنتج منه أنّ الأسباب الوجوديّة غير مستقلة فى التأثير و المؤثر الحقيقى بتمام معنى الكلمة ليس إلّا اللّه عزّ سلطانه. قال تعالى: أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ «۱»، و قال تعالى: لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ «۲»، و قال تعالى: لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ «۳»، و قال تعالى: قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ «۴» إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالّة على أنّ كلّ شىء مملوك محض للّه لا يشاركه فيه أحد، و له أن يتصرّف فيها كيف شاء و أراد و ليس لأحد أن يتصرّف فى شىء منها إلّا من بعد أن يأذن اللّه لمن شاء و يملّكه التصرّف من غير استقلال فى هذا التمليك أيضا، بل مجرّد إذن لا يستقل به المأذون له دون أن يعتمد على إذن الآذن، قال تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ «۵»، و قال تعالى:

(_____ ۱) الأعراف- ۵۳. (۲) البقرة- ۲۸۴.

(۳) الحديد- ۵. (۴) النساء- ۷۷. (۵) آل عمران- ۲۶. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۳۶ الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى «۱» إلى غير ذلك من الآيات، و قال تعالى أيضا: لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ «۲»، و قال تعالى: ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ «۳». فالأسباب تملكت السببيّة بتمليكه تعالى، و هى غير مستقلّة فى عين أنّها مالكة و هذا المعنى هو الذى يعبّر سبحانه عنه بالشفاعة و الإذن، فمن المعلوم أنّ الإذن إنّما يستقيم معناه إذا كان هناك مانع من تصرّف المأذون فيه، و المانع أيضا إنّما يتصوّر فيما كان هناك مقتض موجود يمنع المانع عن تأثيره و يحول بينه و بين تصرّفه. فقد بان أنّ فى كلّ سبب مبدئا مؤثرا مقتضيا للتأثير به يؤثر فى مسبّبه و الأمر مع ذلك للّه سبحانه.

(_____ ۱) طه- ۵۰. (۲) البقرة- ۲۵۵. (۳) يونس- ۳. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۳۷

الفصل الرابع القرآن يثبت تأثيرا فى نفوس الأنبياء فى الخوارق

الفصل الرابع القرآن يثبت تأثيرا فى نفوس الأنبياء فى الخوارق ثمّ إنه تعالى قال: وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ «۱». فأفاد إناطة إتيان أية آية من أىّ رسول بإذن اللّه سبحانه فبيّن أن إتيان الآيات المعجزة من الأنبياء و صدورها عنهم إنّما هو لمبدأ مؤثر موجود فى نفوسهم الشريفة متوقّف فى تأثيره على الإذن كما مرّ فى الفصل السابق. و قال تعالى: وَ اتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ وَ ما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَ لكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَ ما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَ مارُوتَ وَ ما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ وَ ما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ «۲». و الآية كما أنّها تصدق صحّة السحر فى الجملة كذلك تدلّ على أنّ السحر أيضا كالمعجزة فى كونه عن مبدأ نفسانى فى الساحر لمكان الإذن. و بالجملة جميع الأمور الخارقة للعادة سواء سميت معجزة أو سحرا أو غير ذلك ككرامات الأولياء و سائر الخصال المكتسبة بالارتياضات و المجاهدات جميعها مستندة إلى مبادئ نفسانية و مقتضيات إراديّة على ما (_____ ۱) المؤمن- ۷۸. (۲) البقرة- ۱۰۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۳۸ يشير إليه كلامه سبحانه إلّا أن كلامه ينص على أنّ المبدأ الموجود عند الأنبياء و الرسل و المؤمنين هو الفائق الغالب على كلّ سبب و فى كلّ حال، قال تعالى: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ «۱»، و قال تعالى: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي «۲»، و قال تعالى: إِنَّا لَنَنْصُرُ

رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (۵۱) «۳»، و الآيات مطلقة غير مقيّدة. و من هنا يمكن أن يستنتج أنّ هذا المبدأ الموجود المنصور أمر وراء الطبيعة و فوق المادّة. فإنّ الأمور الماديّة مقدّرة محدودة مغلوبة لما هو فوقها قدرا واحدا عند التزاحم و المغالبة و الأمور المجرّدة أيضا و إن كانت كذلك إلّا أنّها لا تزاحم بينها و لا تمانع إلّا أن تتعلّق بالمادّة بعض التعلّق. و هذا المبدأ النفسانى المجرّد المنصور بإرادة اللّه سبحانه إذا قابل مانعا ماديّا أفاض إمدادا على السبب بما لا يقاومه سبب مادى يمنعه فافهم.

(_____ ۱) الصافات- ۱۷۱ - ۱۷۳. (۲) المجادلة ۲۱. (۳) المؤمن- ۵۱. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۳۹

الفصل الخامس القرآن كما يسند الخوارق إلى تأثير النفوس يسندها إلى أمر اللّه

الفصل الخامس القرآن كما يسند الخوارق إلى تأثير النفوس يسندها إلى أمر اللّه ثمّ إنّ الجملة الأخيرة من الآية السابقة فى الفصل أعنى قوله تعالى: فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ، الآية، تدلّ على أنّ تأثير هذا المقتضى يتوقّف على أمر من اللّه تعالى يصاحب الإذن الذى كان يتوقّف عليه أيضا فتأثير هذا المقتضى يتوقّف على مصادفته الأمر أو اتحاده معه. و قد فسّر الأمر فى قوله تعالى: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «۱»، بكلمة الإيجاد و قول: كن. و قال تعالى: إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا. وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ «۲»، و قال: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ. وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ «۳»، دلّت الآيات على أنّ الأمر الذى للإنسان أن يريده و بيده زمام اختياره لا يتحقّق موجودا إلّا أن يشاء اللّه ذلك بأن يشاء الإنسان و يريد إرادة الإنسان فإنّ الآيات الشريفة فى مقام أن أفعال الإنسان الإرادية و إن كانت بيد الإنسان بإرادته لكن الإرادة و المشيئة ليست بيد الإنسان بل هى مستندة إلى مشيئة اللّه سبحانه، و ليست فى مقام بيان أنّ

(_____ ۱) يس- ۸۲. (۲) الدهر- ۲۹، ۳۰. (۳) التكوير- ۲۷، ۲۸، ۲۹. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۴۰ كلّ ما يريده الإنسان فقد أراده اللّه فإنّه خطأ فاحش و لازمه أن يتخلّف الفعل عن إرادة اللّه سبحانه عند تخلّفه عن إرادة الإنسان، تعالى اللّه عن ذلك. مع أنّه خلاف ظواهر الآيات الكثيرة الواردة فى هذا المورد كقوله تعالى: وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها «۱»، و قوله تعالى: وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً «۲»، إلى غير ذلك فإرادتنا و مشيئتنا إذا تحقّقت فينا فهى مرادة بإرادة اللّه و مشيئته لها و كذا أفعالنا مرادة له تعالى من طريق إرادتنا و مشيئتنا بالواسطة. و هما أعنى الإرادة و الفعل جميعا متوقفان على أمر اللّه سبحانه و كلمة كن. فالأمور جميعا سواء كانت عادية أو خارقة للعادة و سواء كان خارق العادة فى جانب الخير و السعادة كالمعجزة و الكرامة، أو فى جانب الشر كالسحر و الكهانة مستندة فى تحقّقها إلى أسباب طبيعيّة، و هى مع ذلك متوقّفة على إرادة اللّه، لا توجد إلّا بأمر اللّه سبحانه أى بأن يصادف السبب أو يتّحد مع أمر اللّه سبحانه. و جميع الأشياء و إن كانت من حيث استناد وجودها إلى الأمر الإلهى على حدّ سواء بحيث إذا تحقّق الإذن و الأمر تحقّقت عن أسبابها، و إذا لم يتحقّق الإذن و الأمر لم تتحقّق، أى لم تتم السببيّة إلّا أنّ قسما منها و هو المعجزة من الأنبياء أو ما سأله عبد ربّه بالدعاء لا يخلو عن إرادة موجبة منه تعالى و أمر عزيمة كما يدلّ عليه قوله: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي «۳»، الآية، و قوله تعالى: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ «۴»، الآية، و غير ذلك من الآيات المذكورة فى الفصل السابق.

(_____ ۱) السجدة- ۱۳. (۲) يونس- ۹۹. (۳) المجادلة- ۲۱. (۴) البقرة- ۱۸۶. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۴۱

الفصل السادس القرآن يسند المعجزة إلى سبب غير مغلوب

الفصل السادس القرآن يسند المعجزة إلى سبب غير مغلوب فقد تبيّن من الفصول السابقة من البحث أن المعجزة كسائر الأمور الخارقة

للعادة لا تفارق الأسباب العادية فى الاحتياج إلى سبب طبيعى و أنّ مع الجميع أسبابا باطنيّة و أنّ الفرق بينها أنّ الأمور العادية ملازمة لأسباب ظاهريّة تصاحبها الأسباب الحقيقيّة الطبيعيّة غالبا أو مع الأغلب، و مع تلك الأسباب الحقيقيّة إرادة اللّه و أمره، و الأمور الخارقة للعادة من الشرور كالسحر و الكهانة مستندة إلى أسباب طبيعيّة مفارقة للعادة مقارنة للسبب الحقيقى بالإذن و الإرادة كاستجابة الدعاء و نحو ذلك من غير تحد يبتنى عليه ظهور حق الدعوة و أنّ المعجزة مستندة إلى سبب طبيعى حقيقى بإذن اللّه و أمره إذا كان هناك تحد يبتنى عليه صحّة النبوّة و الرسالة و الدعوة إلى اللّه تعالى و أنّ القسمين الآخرين يفارقان سائر الأقسام فى أنّ سببهما لا يصير مغلوبا مقهورا قط بخلاف سائر المسببات. فإن قلت: فعلى هذا لو فرضنا الإحاطة و البلوغ إلى السبب الطبيعى الذى للمعجزة كانت المعجزة ميسورة ممكنة الإتيان لغير النبى أيضا و لم يبق فرق بين المعجزة و غيرها إلّا بحسب النسبة و الإضافة فقط فيكون حينئذ أمر ما معجزة بالنسبة إلى قوم غير معجزة بالنسبة إلى آخرين، و هم المطّلعون على سببها الطبيعى الحقيقى، و فى عصر دون عصر، و هو عصر العلم، فلو ظفر البحث العلمى على الأسباب الحقيقيّة الطبيعيّة القصوى لم يبق مورد للمعجزة و لم تكشف المعجزة عن الحق. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۴۲ و نتيجة هذا البحث أنّ المعجزة لا حجيّة فيها إلّا على الجاهل بالسبب فليست حجة فى نفسها. قلت كلّا فليست المعجزة معجزة من حيث أنّها مستندة إلى سبب طبيعى مجهول حتّى تنسلخ عن اسمها عند ارتفاع الجهل و تسقط عن الحجيّة، و لا أنّها معجزة من حيث استنادها إلى سبب مفارق للعادة، بل هى معجزة من حيث أنّها مستندة إلى أمر مفارق للعادة غير مغلوب السبب قاهرة العلّة البتة، و ذلك كما أنّ الأمر الحادث من جهة استجابة الدعاء كرامة من حيث استنادها إلى سبب غير مغلوب كشفاء المريض مع أنّه يمكن أن يحدث من غير جهته كجهة العلاج بالدواء غير أنّه حينئذ أمر عادى يمكن أن يصير سببه مغلوبا مقهورا بسبب آخر أقوى منه. *** الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۴۳

الفصل السابع القرآن يعد المعجزة برهانا على صحّة الرسالة لا دليلا عاميا

الفصل السابع القرآن يعد المعجزة برهانا على صحّة الرسالة لا دليلا عاميا و هاهنا سؤال و هو أنّه ما هى الرابطة بين المعجزة و بين حقيّة دعوى الرسالة مع أنّ العقل لا يرى تلازما بين صدق الرسول فى دعوته إلى اللّه سبحانه و بين صدور أمر خارق للعادة عن الرسول على أنّ الظاهر من القرآن الشريف، تقرير ذلك فيما يحكيه من قصص عدّة من الأنبياء كهود و صالح و موسى و عيسى و محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإنّهم على ما يقصه القرآن حينما بثوا دعوتهم سألوا عن آية تدلّ على حقيّة دعواهم فأجابوهم فيما سألوا و جاءوا بالآيات، و ربّما أعطوا المعجزة فى أوّل البعثة قبل أن يسألهم أممهم شيئا من ذلك كما قال تعالى فى موسى عليه السّلام و هارون: اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآياتِي وَ لا تَنِيا فِي ذِكْرِي «۱»، و قال تعالى فى عيسى عليه السّلام: وَ رَسُولًا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «۲» و كذا إعطاء القرآن معجزة للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بالجملة فالعقل الصريح لا يرى تلازما بين حقيّة ما أتى به الأنبياء و الرسل من

(_____ ۱) طه- ۴۲. (۲) آل عمران- ۴۹.

الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۴۴ معارف المبدأ و المعاد و بين صدور أمر يخرق العادة عنهم. مضافا إلى أنّ قيام البراهين الساطعة على هذه الأصول الحقّة يغنى العالم البصير بها عن النظر فى أمر الإعجاز و لذا قيل إنّ المعجزات لإقناع نفوس العامّة لقصور عقولهم عن إدراك الحقائق العقليّة و أمّا الخاصّة فإنّهم فى غنى عن ذلك. و الجواب عن هذا السؤال أنّ الأنبياء و الرسل عليهم السّلام لم يأتوا بالآيات المعجزة لإثبات شىء من معارف المبدأ و المعاد ممّا يناله العقل كالتوحيد و البعث و أمثالهما و إنّما اكتفوا فى ذلك بحجة العقل و المخاطبة من طريق النظر و الاستدلال كقوله تعالى: قالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ «۱»، فى الاحتجاج على التوحيد و قوله تعالى: وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ

كَفَرُوا مِنَ النَّارِ. أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ «۲»، فى الاحتجاج على البعث. و إنّما سئل الرسل المعجزة و أتوا بها لإثبات رسالتهم و تحقيق دعواها. و ذلك أنّهم ادعوا الرسالة من اللّه بالوحى و أنّه بتكليم إلهى أو نزول ملك و نحو ذلك و هنا شىء خارق للعادة فى نفسه من غير سنخ الإدراكات الظاهرة و الباطنة التى يعرفها عامّة النّاس و يجدونها من أنفسهم، بل إدراك مستور عن عامّة النفوس لو صح وجوده لكان تصرفا خاصّا مما وراء الطبيعة فى نفوس الأنبياء فقط، مع أنّ الأنبياء كغيرهم من أفراد الناس فى البشريّة و قواها، و لذلك صادفوا إنكارا شديدا من الناس و مقاومة عنيفة فى ردّه على أحد وجهين: فتارة حاول الناس إبطال دعواهم بالحجّة كقوله تعالى: قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا «۳»، استدلوا فيها (_____ ۱) إبراهيم- ۱۰. (۲)

ص- ۲۸. (۳) إبراهيم- ۱۰۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۴۵ على بطلان دعواهم الرسالة بأنّهم مثل سائر الناس و الناس لا يجدون شيئا ممّا يدعونه من أنفسهم مع وجود المماثلة، و لو كان لكان فى الجميع أو جاز للجميع و لهذا، و هنا أجاب الرسل عن حجتهم بما حكاه اللّه تعالى عنهم بقوله: قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ «۱»، فردّوا عليهم بتسليم المماثلة و أنّ الرسالة من منن اللّه الخاصّة، و الاختصاص ببعض النعم الخاصّة لا ينافى المماثلة، فللناس اختصاصات، نعم لو شاء اللّه أن يمن على من يشاء منهم فعل ذلك من غير مانع فالنبوة مختصّة بالبعض و إن جاز على الكل. و نظير هذا الاحتجاج قولهم فى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على ما حكاه اللّه تعالى: أَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا «۲»، و قولهم كما حكاه اللّه: وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «۳». و نظير هذا الاحتجاج أو قريب منه ما فى قوله تعالى: وَ قالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً. أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها «۴»، و وجه الاستدلال أنّ دعوى الرسالة توجب أن لا يكون بشرا مثلنا لكونه ذا أحوال من الوحى و غيره ليس فينا فلم يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق لاكتساب المعيشة؟ بل يجب أن ينزل معه ملك يشاركه فى الإنذار أو يلقى إليه كنز فلا يحتاج إلى المشى فى الأسواق للكسب أو تكون له جنّة فيأكل منها لا ممّا نأكل منه من طعام، فردّ اللّه تعالى عليهم بقوله: انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا إلى أن قال: وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَ تَصْبِرُونَ وَ كانَ رَبُّكَ بَصِيراً «۵»، ورد تعالى فى موضع آخر مطالبتهم مباشرة الملك للإنذار بقوله: وَ لَوْ

(_____ ۱) إبراهيم- ۱۳. (۲) ص- ۸. (۳)

الزخرف- ۳۱. (۴) الفرقان- ۸. (۵) الفرقان- ۲۰. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۴۶ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ «۱». و قريب من ذلك الاحتجاج أيضا ما فى قوله تعالى: وَ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً «۲»، فأبطلوا بزعمهم دعوى الرسالة بالوحى بمطالبة أن يشهدوا نزول الملك أو رؤية الرب سبحانه لمكان المماثلة مع النبى، فردّ اللّه تعالى عليهم ذلك بقوله: يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً «۳»، فذكر أنّهم و الحال حالهم لا يرون الملائكة إلّا مع حال الموت كما ذكره فى موضع آخر بقوله تعالى: وَ قالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ. لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ ما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ «۴» و تشتمل هذه الآيات الأخيرة على زيادة فى وجه الاستدلال، و هو تسليم صدق النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى دعواه إلّا أنّه مجنون و ما يحكيه و يخبر به أمر يسوّله له الجنون غير مطابق للواقع كما فى موضع آخر من قوله: وَ قالُوا مَجْنُونٌ وَ ازْدُجِرَ «۵». و بالجملة فأمثال هذه الآيات مسوقة لبيان إقامتهم الحجّة على إبطال دعوى النبوّة من طريق المماثلة. و تارة أخرى أقاموا أنفسهم مقام الإنكار و سؤال الحجّة و البيّنة على صدق الدعوة لاشتمالها على ما تنكره النفوس و لا تعرفه العقول (على طريقة المنع مع السند باصطلاح فن المناظرة) و هذه البيّنة هى المعجزة بيان ذلك أنّ دعوى النبوّة و الرسالة من كل نبى و رسول على ما يقصّه القرآن إنّما كانت بدعوى الوحى و التكليم الإلهى بلا واسطة أو بواسطة نزول الملك، و هذا أمر لا يساعد عليه الحسّ و لا تؤيده التجربة فيتوجّه

عليه الإشكال من جهتين: إحداهما من جهة عدم الدليل عليه، و الثانية من جهة الدليل على

(_____ ۱) الأنعام- ۹. (۲) الفرقان- ۲۱. (۳) الفرقان- ۲۲. (۴) الحجر- ۸. (۵) القمر- ۹. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۴۷ عدمه، فإنّ الوحى و التكليم الإلهى و ما يتلوه من التشريع و التربية الدينية مما لا يشاهده البشر من أنفسهم و العادة الجارية فى الأسباب و المسببات تنكره فهو أمر خارق للعادة و قانون العلّيّة العامّة لا يجوّزه، فلو كان النبى صادقا فى دعواه النبوّة و الوحى كان لازمه أنّه متّصل بما وراء الطبيعة، مؤيد بقوّة إلهيّة تقدر على خرق العادة و أنّ اللّه سبحانه يريد بنبوّته و الوحى إليه خرق العادة فلو كان هذا حقّا و لا فرق بين خارق و خارق كان من الممكن أن يصدر من النبى خارق آخر للعادة من غير مانع و أن يخرق اللّه العادة بأمر آخر يصدّق النبوّة و الوحى من غير مانع عنه فإنّ حكم الأمثال واحد فلئن أراد اللّه هداية الناس بطريق خارق للعادة و هو طريق النبوّة و الوحى فليؤيّدها و ليصدّقها بخارق آخر و هو المعجزة. و هذا هو الذى بعث الأمم إلى سؤال المعجزة على صدق دعوى النبوة كلما جاءهم رسول من أنفسهم بعث بالفطرة و الغريزة و كان سؤال المعجزة لتأييد الرسالة و تصديقها لا للدلالة على صدق المعارف الحقة التى كان الأنبياء يدعون إليها ممّا يمكن أن يناله البرهان كالتوحيد و المعاد و نظير هذا ما لو جاء رجل بالرسالة إلى قوم من قبل سيدهم الحاكم عليهم و معه أوامر و نواه يدعيها للسيد فإنّ بيانه لهذه الأحكام و إقامته البرهان على أن هذه الأحكام مشتملة على مصلحة القوم و هم يعلمون أن سيدهم لا يريد إلّا صلاح شأنهم، إنّما يكفى فى كون الأحكام التى جاء بها حقة صالحة للعمل، و لا تكفى البراهين و الأدلّة المذكورة فى صدق رسالته و أن سيدهم أراد منهم بإرساله إليهم ما جاء به من الأحكام بل يطالبونه ببيّنة أو علامة تدلّ على صدقه فى دعواه ككتاب بخطه و خاتمه يقرءونه أو علامة يعرفونها، كما قال المشركون للنبى حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ «۱». فقد تبيّن بما ذكرناه أولا: التلازم بين صدق دعوى الرسالة و بين المعجزة و أنّها الدليل على صدق دعواها لا- يتفاوت فى ذلك حال الخاصّة و العامّة فى دلالتها و إثباتها و ثانيا أن ما يجده الرسول و النبى من الوحى و يدركه منه من غير سنخ ما نجده بحواسنا و عقولنا النظرية الفكرية فالوحى

(_____ ۱) الإسراء- ۹۳. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۴۸ غير الفكر الصائب، و هذا المعنى فى كتاب اللّه تعالى من الوضوح و السطوع بحيث لا يرتاب فيه من له أدنى فهم و أقل إنصاف. و قد انحرف فى ذلك جمع من الباحثين من أهل العصر فراموا بناء المعارف الإلهيّة و الحقائق الدينية على ما وضعته العلوم الطبيعية من أصالة المادّة المتحوّلة المتكاملة فقد رأوا أن الإدراكات الإنسانيّة خواص ماديّة مترشحة من الدماغ و أن الغايات الوجودية و جميع الكمالات الحقيقية استكمالات فردية أو اجتماعية مادية. فذكروا أن النبوّة نوع نبوغ فكرى و صفاء ذهنى يستحضر به الإنسان المسمى نبيا كمال قومه الاجتماعى و يريد به أن يخلصهم من ورطة الوحشية و البربرية إلى ساحة الحضارة و المدنية فيستحضر ما ورثه من العقائد و الآراء و يطبقها على مقتضيات عصره و محيط حياته فيقنن لهم أصولا اجتماعية و كليات عملية يستصلح بها أفعالهم الحيوية ثمّ يتمم ذلك بأحكام و أمور عبادية ليستحفظ بها خواصهم الروحية لافتقار الجامعة الصالحة و المدنية الفاصلة إلى ذلك و يتفرع على هذا الافتراض: أولا: أن النبى إنسان متفكر نابغ يدعو قومه إلى صلاح محيطهم الاجتماعى. ثانيا: أن الوحى هو انتقاش الأفكار الفاضلة فى ذهنه. ثالثا: أن الكتاب السماوى مجموع هذه الأفكار الفاضلة المنزهة عن التهوسات النفسانية و الأغراض النفسانية الشخصية. و رابعا: أن الملائكة التى أخبر بها النبى قوى طبيعية تدبّر أمور الطبيعة أو قوى نفسانية تفيض كمالات النفوس عليها، و أن روح القدس مرتبة من الروح الطبيعية المادية تترشح منها هذه الأفكار المقدسة، و أن الشيطان مرتبة من الروح تترشح منها الأفكار الردية و تدعو إلى الأعمال الخبيثة المفسدة للاجتماع، و على هذا الأسلوب فسروا الحقائق التى أخبر بها الأنبياء كاللوح و القلم و العرش و الكرسى و الكتاب و الحساب و الجنة و النار بما يلائم الأصول المذكورة. و خامسا: أن الأديان تابعة لمقتضيات أعصارها تتحوّل بتحولها. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۴۹ و سادسا: أن المعجزات المنقولة عن الأنبياء المنسوبة إليهم خرافات مجعولة أو حوادث محرّفة لنفع الدين و حفظ عقائد العامة عن التبدل بتحول الأعصار أو لحفظ مواقع أئمة

الدين و رؤساء المذهب عن السقوط و الاضمحلال إلى غير ذلك مما أبدعه قوم و تبعهم آخرون. هذه جمل ما ذكروه و النبوة بهذا المعنى لأن تسمى لعبة سياسية أولى بها من أن تسمى نبوّة إلهية، و الكلام التفصيلى فى أطراف ما ذكروه خارج عن البحث المقصود فى هذا المقام. و الذى يمكن أن يقال فيه هاهنا أن الكتب السماوية و البيانات النبوية المأثورة على ما بأيدينا لا توافق هذا التفسير و لا تناسبه أدنى مناسبة، و إنما دعاهم إلى هذا النوع من التفسير إخلادهم إلى الأرض و ركونهم إلى مباحث المادة فاستلزموا إنكار ما وراء الطبيعة و تفسير الحقائق المتعالية عن المادة بما يسلخها عن شأنها و يعيدها إلى المادة الجامدة. و ما ذكره هؤلاء هو فى الحقيقة تطور جديد فيما كان يذكره آخرون فقد كانوا يفسرون جميع الحقائق المأثورة فى الدين بالمادة غير أنهم كانوا يثبتون لها وجودات غائبة عن الحسّ كالعرش و الكرسى و اللوح و القلم و الملائكة و نحوها من غير مساعدة الحسّ و التجربة على شىء من ذلك ثمّ لما اتسع نطاق العلوم الطبيعية و جرى البحث على أساس الحس و التجربة لزم الباحثين على ذلك الأسلوب أن ينكروا لهذه الحقائق وجوداتها المادية الخارجة عن الحسّ أو البعيدة عنه و أن يفسروها بما يعيدها إلى الوجود المادى المحسوس ليوافق الدين ما قطع به العلم و يستحفظ بذلك عن السقوط. فهاتان الطائفتان بين باغ و عاد، أما القدماء من المتكلمين فقد فهموا من البيانات الدينية مقاصدها حق الفهم من غير مجاز غير أنهم رأوا أن مصاديقها جميعا أمور مادية محضة لكنها غائبة عن الحس غير محكومة بحكم المادة أصلا و الواقع خلافه، و أما المتأخرون من باحثى هذا العصر ففسروا البيانات الدينية بما أخرجوها به عن مقاصدها البيّنة الواضحة، و طبقوها على حقائق مادية ينالها الحس و تصدقها التجربة مع أنها ليست بمقصودة و لا البيانات اللفظية تنطبق على شىء منها. و البحث الصحيح يوجب أن تفسر هذه البيانات اللفظية على ما يعطيها اللفظ فى العرف و اللغة الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۵۰ ثمّ يعتمد فى أمر المصداق على ما يفسر به بعض الكلام بعضا ثمّ ينظر هل الأنظار العلمية تنافيها أو تبطلها؟ فلو ثبت فيها فى خلال ذلك شىء خارج عن المادة و حكمها فإنما الطريق إليه إثباتا أو نفيا طور آخر من البحث غير البحث الطبيعى الذى تتكفله العلوم الطبيعية، فما للعلم الباحث عن الطبيعة و للأمر الخارج عنها؟ فإن العلم الباحث عن المادة و خواصها ليس من وظيفته أن يتعرض لغير المادة و خواصها لا- إثباتا و لا نفيا. و لو فعل شيئا منه باحث من بحّاثه كان ذلك منه شططا من القول، نظير ما لو أراد الباحث فى علم اللغة أن يستظهر من علمه حكم الفلك نفيا أو إثباتا ... «۱».

(_____ ۱) انظر جميع ما تقدم فى المجلد الأول من تفسير الميزان ص ۷۵. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۵۱

نزول القرآن

۱- النزول حقيقته و تعريفه:

۱- النزول حقيقته و تعريفه: قال تعالى: شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَ الْفُرْقانِ «۱». النزول هو الورود على المحل من العلو، و الفرق بين الإنزال و التنزيل أن الإنزال دفعى و التنزيل تدريجى، و القرآن اسم للكتاب المنزل على نبيه محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باعتبار كونه مقروّا كما قال تعالى: إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «۲» و يطلق على مجموع الكتاب و على أبعاضه. و الآية تدلّ على نزول القرآن فى شهر رمضان، و قد قال تعالى: وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا «۳»، و هو ظاهر فى نزوله تدريجيا فى مجموع مدة الدعوة و هى ثلاث و عشرون سنة تقريبا و المتواتر من التاريخ يدلّ على ذلك، و لذلك ربما استشكل عليه بالتنافى بين الآيتين.

۲- كيفية نزول القرآن:

۲- كيفيـــة نزول القرآن: و ربمـــا أجيـــب عنـــه: بـــأنه نزل دفعـــة على ســـماء الـــدنيا فى شـــهر رمضـــان ثمّ

(_____ ۱) البقرة- ۱۸۵. (۲) الزخرف- ۳.

(۳) الإسراء- ۱۰۶. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۵۲ نزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نجوما و على مكث فى مدة ثلاث و عشرين سنة- مجموع مدة الدعوة- و هذا جواب مأخوذ من الروايات التى سننقل بعضها فى البحث عن الروايات. و قد أورد عليه: بأن تعقيب قوله تعالى: أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ بقوله: هُدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَ الْفُرْقانِ «۱»، لا يساعد على ذلك إذ لا معنى لبقائه على وصف الهداية و الفرقان فى السماء مدة سنين. و أجيب: بأن كونه هاديا من شأنه أن يهدى من يحتاج إلى هدايته من الضلال، و فارقا إذا التبس حق بباطل لا ينافى بقاءه مدة على حال الشأنية من غير فعلية التأثير حتى يحل أجله و يحين حينه، و لهذا نظائر و أمثال فى القوانين المدنية المنتظمة التى كلما حان حين مادة من موادها أجريت و خرجت من القوة إلى الفعل. و الحقّ أن حكم القوانين و الدساتير غير حكم الخطابات التى لا يستقيم أن تتقدم على مقام التخاطب و لو زمانا يسيرا، و فى القرآن آيات كثيرة من هذا القبيل كقوله تعالى: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجادِلُكَ فِى زَوْجِها وَ تَشْتَكِى إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما «۲»، و قوله تعالى: وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَ تَرَكُوكَ قائِماً «۳»، و قوله تعالى: رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا «۴» على أن فى القرآن ناسخا و منسوخا، و لا معنى لاجتماعهما فى زمان بحسب النزول. و ربما أجيب عن الإشكال: أن المراد من نزول القرآن فى شهر رمضان أن أول ما نزل منه نزل فيه، و يرد عليه: أن المشهور عندهم أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنما بعث بالقرآن، و قد بعث اليوم السابع العشرين من شهر رجب و بينه و بين رمضان أكثر من ثلاثين يوما و كيف تخلو البعثة فى هذه المدة من نزول القرآن، على أن أول سورة اقرأ باسم ربك، يشهد على أنها أول سورة

(_____ ۱) البقرة- ۱۸۵. (۲) المجادلة- ۱.

(۳) الجمعة- ۱۱. (۴) الأحزاب- ۲۳. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۵۳ نزلت و أنها نزلت بمصاحبة البعثة، و كذا سورة المدّثر تشهد أنها نزلت فى أول الدعوة و كيف كان فمن المستبعد جدا أن تكون أول آية نزلت فى شهر رمضان، على أن قوله تعالى: أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، غير صريح الدلالة على أن المراد بالقرآن أول نازل منه و لا قرينة تدل عليه فى الكلام فحمله عليه تفسير من غير دليل، و نظير هذه الآية قوله تعالى: وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِى لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ «۱»، و قوله: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ «۲»، فإن ظاهر هذه الآيات لا يلائم كون المراد من إنزال القرآن أول إنزاله أو إنزال أول بعض من أبعاضه و لا قرينة فى الكلام تدل على ذلك. و الذى يعطيه التدبّر فى آيات الكتاب أمر آخر فإن الآيات الناطقة بنزول القرآن فى شهر رمضان أو فى ليلة منه إنما عبرت عن ذلك بلفظ الإنزال الدال على الدفعة دون التنزيل كقوله تعالى: شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ «۳»، و قوله تعالى: حم. وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِى لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ «۴»، و قوله تعالى: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ و اعتبار الدفعة إما بلحاظ اعتبار المجموع فى الكتاب أو البعض النازل منه كقوله تعالى: كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ «۵». فإن المطر إنما ينزل تدريجيا لكن النظر هاهنا معطوف إلى أخذه مجموعا واحدا، و لذلك عبّر عنه بالإنزال دون التنزيل، و كقوله تعالى: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ «۶»، و إما لكون الكتاب ذا حقيقة أخرى وراء ما نفهمه بالفهم العادى الذى يقضى فيه بالتفرق و التفصيل و الانبساط و التدريج هو المصحّح لكونه واحدا غير تدريجى و نازلا بالإنزال دون التنزيل. و هذا الاحتمال الثانى هو اللائح من الآيات الكريمة كقوله تعالى:

(_____ ۱) الدخان- ۲ و ۳. (۲) القدر- ۱.

(۳) البقرة- ۱۸۵. (۴) الدخان- ۱ إلى ۳. (۵) يونس- ۲۴. (۶) ص- ۲۹. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۵۴ كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ «۱» فإن هذا الإحكام مقابل التفصيل، و التفصيل هو جعله فصلا فصلا و قطعة قطعة فالإحكام كونه بحيث لا يتفصّل فيه جزء من جزء و لا يتميز بعض من بعض لرجوعه إلى معنى واحد لا أجزاء و لا فصول فيه، و الآية ناطقة بأن هذا التفصيل المشاهد فى القرآن إنما طرأ عليه بعد كونه محكما غير مفصّل. و أوضح منه قوله تعالى: وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ

فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ «۲»، و قوله تعالى: وَ ما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ- إلى أن قال-: بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ «۳» فإن الآيات الشريفة و خاصة ما فى سورة يونس ظاهرة الدلالة على أن التفصيل أمر طارئ على الكتاب فنفس الكتاب شىء و التفصيل الذى يعرضه شىء آخر، و أنهم إنما كذّبوا بالتفصيل من الكتاب لكونهم ناسين لشىء يؤول إليه هذا التفصيل و غافلين عنه، و سيظهر لهم يوم القيامة و يضطرون إلى علمه فلا ينفعهم الندم و لات حين مناص و فيها إشعار بأن أصل الكتاب تأويل تفصيل الكتاب. و أوضح منه قوله تعالى: حم. وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ «۴» فإنه ظاهر فى أن هناك كتابا مبينا عرض عليه جعله مقروءا عربيا، و إنما ألبس لباس القراءة و العربية ليعقله الناس و إلّا فإنه- و هو فى أم الكتاب- عند اللّه، على لا يصعد إليه العقول، حكيم لا يوجد فيه فصل و فصل. و فى الآية تعريف للكتاب المبين و أنه أصل القرآن العربى المبين، و فى هذا المساق أيضا قوله تعالى: فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ. وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ

(۱) هود- ۱. (۲) الأعراف- ۵۲ و ۵۳.

(۳) يونس- ۳۷ و ۳۹. (۴) الزخرف- ۱ إلى ۴. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۵۵ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ. لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ «۱» فإنه ظاهر فى أن للقرآن موقعا هو فى الكتاب المكنون لا يمسّه هناك أحد إلّا المطهرون من عباد اللّه و أن التنزيل بعده، و أما قبل التنزيل فله موقع فى كتاب مكنون عن الأغيار و هو الذى عبّر عنه فى آيات الزخرف، بأم الكتاب، و فى سورة البروج، باللّوح المحفوظ، حيث قال تعالى: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ «۲»، و هذا اللوح إنما كان محفوظا لحفظه من ورود التغيّر عليه، و من المعلوم أن القرآن المنزّل تدريجا لا يخلو عن ناسخ و منسوخ و عن التدريج الذى هو نحو من التبدّل، فالكتاب المبين الذى هو أصل القرآن و حكمه الخالى عن التفصيل أمر وراء هذا المنزّل، و إنما هذا بمنزلة اللباس لذاك. ثم إن هذا المعنى أعنى: كون القرآن فى مرتبة التنزيل بالنسبة إلى الكتاب المبين- و نحن نسمّيه بحقيقة الكتاب- بمنزلة اللباس من المتلبّس و بمنزلة المثال من الحقيقة و بمنزلة المثل من الغرض المقصود بالكلام هو المصحّح لأن يطلق القرآن أحيانا على أصل الكتاب كما فى قوله تعالى: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ، إلى غير ذلك و هذا الذى ذكرنا هو الموجب لأن يحمل قوله: شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، و قوله: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ، و قوله: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ على إنزال حقيقة الكتاب و الكتاب المبين إلى قلب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دفعة كما أنزل القرآن المفصّل على قلبه تدريجا فى مدة الدعوة النبوية. و هذا هو الذى يلوح من نحو قوله تعالى: وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ «۳»، و قوله تعالى: لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ. فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ «۴»، فإن الآيات ظاهرة فى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان له علم بما سينزل عليه فنهى عن

(۱) الواقعة- ۷۵ إلى ۸۰. (۲) البروج- ۲۱ و ۲۲. (۳) طه- ۱۱۴. (۴) القيامة- ۱۶ إلى ۱۹. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۵۶ الاستعجال بالقراءة قبل قضاء الوحى و سيأتى توضيحه فى المقام اللائق به- إن شاء اللّه تعالى-. و بالجملة فإن المتدبّر فى الآيات القرآنية لا يجد مناصا عن الاعتراف بدلالتها على كون هذا القرآن المنزّل على النبى تدريجيا متكئا على حقيقة متعالية عن أن تدركها أبصار العقول العامة أو تناولها أيدى الأفكار المتلوثة بألواث الهوسات و قذارات المادة، و أن تلك الحقيقة أنزلت على النبى إنزالا فعلّمه اللّه بذلك حقيقة ما عناه بكتابه، و سيجىء بعض من الكلام المتعلق بهذا المعنى فى البحث عن التأويل و التنزيل فى قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ «۱» فهذا ما يهدى إليه التدبّر و تدل عليه الآيات. نعم أرباب الحديث، و الغالب من المتكلمين و الحسيّون من باحثى هذا العصر لمّا أنكروا أصالة ما وراء المادة المحسوسة اضطروا إلى حمل هذه الآيات و نظائرها كالدّالة على كون القرآن هدى و

رحمة و نورا و مواقع النجوم و كتابا مبينا، و فى لوح محفوظ، و نازلا من عند اللّه، و فى صحف مطهّرة إلى غير ذلك من الحقائق على أقسام الاستعارة و المجاز فعاد بذلك القرآن شعرا منثورا.

۳- بعض الإشكالات و الردّ عليها:

۳- بعض الإشكالات و الردّ عليها: و لبعض الباحثين كلام فى معنى نزول القرآن فى شهر رمضان: قال ما محصّله: إنه لا ريب أن بعثة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان مقارنا لنزول أوّل ما نزل من القرآن و أمره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالتبليغ و الإنذار، و لا ريب أن هذه الواقعة إنما وقعت بالليل لقوله تعالى: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ «۲» و لا ريب أن الليلة كانت من ليالى شهر رمضان لقوله تعالى: شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ «۳» و جملة القرآن و إن لم تنزل فى تلك الليلة لكن لما نزلت سورة الحمد فيها و هى تشتمل على جمل معارف القرآن فكان كأن

(۱) آل عمران- ۷. (۲) الدخان- ۲.

(۳) البقرة- ۱۸۵. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۵۷ القرآن نزل فيها جميعا فصح أن يقال: أنزلناه فى ليلة (على أن القرآن يطلق على البعض كما يطلق على الكل بل يطلق القرآن على سائر الكتب السماوية أيضا كالتوراة و الإنجيل و الزبور باصطلاح القرآن). قال: و ذلك أن أول ما نزل من القرآن قوله تعالى: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ إلخ، نزل ليلة الخامس و العشرين من شهر رمضان، نزل و النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قاصد دار خديجة فى وسط الوادى فشاهد جبرائيل فأوحى إليه قوله تعالى: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ إلخ، و لما تلقّى الوحى خطر بباله أن يسأله: كيف يذكر اسم ربه فتراءى له و علّمه بقوله: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ إلى آخر سورة الحمد، ثم علّمه كيفية الصلاة ثم غاب عن نظره فصحا النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يجد مما كان يشاهد أثرا إلّا ما كان عليه من التعب الذى عرضه من ضغطة جبرائيل حين الوحى فأخذ فى طريقه و هو لا يعلم أنّه رسول من اللّه إلى الناس، مأمور بهدايتهم ثم لمّا دخل البيت نام ليلته من شدّة التعب فعاد إليه ملك الوحى صبيحة تلك الليلة و أوحى إليه قوله تعالى: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ «۱». قال: فهذا هو معنى نزول القرآن فى شهر رمضان و مصادفة بعثته لليلة القدر. و أما ما يوجد فى بعض كتب الشيعة من أن البعثة كانت يوم السابع و العشرين من شهر رجب فهذه الأخبار على كونها لا توجد إلّا فى بعض كتب الشيعة التى لا يسبق تاريخ تأليفها أوائل القرن الرابع من الهجرة مخالفة للكتاب كما عرفت. قال: و هناك روايات أخرى فى تأييد هذه الأخبار تدل على أن معنى نزول القرآن فى شهر رمضان: أنه نزل فيه قبل بعثة النبى من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور و أملاه جبرائيل هناك على الملائكة حتى ينزل بعد البعثة على رسول اللّه، و هذه أوهام خرافية دست فى الأخبار مردودة أولا بمخالفة الكتاب، و ثانيا: أن مراد القرآن باللوح المحفوظ هو عالم الطبيعة و بالبيت المعمور هو كرة الأرض لعمرانه بسكون الإنسان فيه، انتهى ملخصا.

(۱) المدثر- ۱ و ۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۵۸ و لست أدرى أى جملة من جمل كلامه- على فساده بتمام أجزائه- تقبل الإصلاح حتى تنطبق على الحق و الحقيقة بوجه؟ فقد اتسع الخرق على الراتق. ففيه أولا: أن هذا التقوّل العجيب الذى تقوّله فى البعثة و نزول القرآن أول ما نزل و أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نزل عليه: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ، و هو فى الطريق ثم نزلت عليه سورة الحمد ثمّ علّم الصلاة، ثمّ دخل البيت و نام تعبانا، ثم نزلت عليه سورة المدّثر صبيحة الليلة فأمر بالتبليغ، كل ذلك تقوّل لا دليل عليه لا آية محكمة و لا سنّة قائمة، و إنما هى قصة تخيّليّة لا توافق الكتاب و لا النقل على ما سيجىء. و ثانيا: أنه ذكر أن من المسلّم أن البعثة و نزول القرآن و الأمر بالتبليغ مقارنة زمانا ثم فسّر ذلك بأن النبوة ابتدأت بنزول القرآن، و كان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نبيا غير رسول ليلة واحدة فقط ثم فى صبيحة الليلة أعطى الرسالة بنزول سورة المدّثر، و لا يسعه، أن يستند فى ذلك إلى كتاب و لا سنّة، و ليس من المسلّم ذلك. أما السنّة فلأن لازم ما طعن به فى جوامع الحديث مطلقا إذ لا شىء من كتب الحديث مما ألّفته العامة أو الخاصة إلّا و تأليفه متأخر عن عصر

النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قرنين فصاعدا فهذا فى السنّة، و التاريخ- على خلوّه من هذه التفاصيل- حاله أسوأ و الدس الذى رمى به الحديث متطرق إليه أيضا. و أما الكتاب فقصور دلالته على ما ذكره أوضح و أجلى بل دلالته على خلاف ما ذكره و تكذيب ما تقوّله ظاهرة فإن سورة اقرأ باسم ربك- و هى أول سورة نزلت على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على ما ذكره أهل النقل، و يشهد به الآيات الخمس التى فى صدرها و لم يذكر أحد أنها نزلت قطعات و لا أقلّ من احتمال نزولها دفعة- مشتملة على أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يصلى بمرأى من القوم و أنه كان منهم من ينهاه عن الصلاة و يذكر أمره فى نادى القوم (و لا ندرى كيف كانت هذه الصلاة التى كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتقرّب بها إلى ربّه فى بادئ أمره إلّا ما تشتمل عليه هذه السورة من أمر السجدة) قال تعالى فيها: أَ رَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى. أَ رَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى أَ رَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى. أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ. ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۵۹ خاطِئَةٍ. فَلْيَدْعُ نادِيَهُ. سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ «۱» فالآيات كما ترى ظاهرة فى أنه كان هناك من ينهى مصليا عن الصلاة، و يذكر أمره فى النادى، و لا ينتهى عن فعاله، و قد كان هذا المصلى هو النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بدليل قوله تعالى بعد ذلك: كَلَّا لا تُطِعْهُ «۲». فقد دلّت السورة على أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يصلى قبل نزول أول سورة من القرآن، و قد كان على الهدى و ربما أمر بالتقوى، و هذا هو النبوّة و لم يسمّ أمره ذلك إنذارا، فكان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نبيا و كان يصلى و لما ينزل عليه قرآن و لا نزلت بعد عليه سورة الحمد و لما يؤمر بالتبليغ. و أما سورة الحمد فإنها نزلت بعد ذلك بزمان، و لو كان نزولها عقيب نزول سورة العلق بلا فصل عن خطور فى قلب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما ذكره هذا الباحث لكان حق الكلام أن يقال: قل بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ إلخ، أو يقال: بسم اللّه الرحمن الرحيم قل الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ إلخ و لكان من الواجب أن يختم الكلام فى قوله تعالى: مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، لخروج بقية الآيات عن الغرض كما هو الأليق ببلاغة القرآن الشريف. نعم وقع فى سورة الحجر- و هى من السور المكية كما تدل عليه مضامين آياتها، قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ «۳». و المراد بالسّبع المثانى سورة الحمد و قد قوبل بها القرآن العظيم و فيه تمام التجليل لشأنها و التعظيم لخطرها لكنها لم تعد قرآنا بل سبعا من آيات القرآن و جزءا منه بدليل قوله تعالى: كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ «۴». و مع ذلك فاشتمال السورة على ذكر سورة الحمد يدلّ على سبق نزولها نزول سورة الحجر، و السورة مشتملة أيضا على قوله تعالى: فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ «۵» الآيات، و يدل ذلك على أن رسول (_____ ۱) العلق- ۹ إلى ۱۸. (۲) العلق- ۱۹. (۳) الحجر- ۸۷. (۴) الزمر- ۲۳. (۵) الحجر- ۹۴ و ۹۵. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۶۰ اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان قد كف عن الإنذار مدة ثم أمر به ثانيا بقوله تعالى: فَاصْدَعْ. و أما سورة المدثر و ما تشتمل عليه من قوله قُمْ فَأَنْذِرْ، فإن كانت السورة نازلة بتمامها دفعة واحدة كان حال هذه الآية قم فأنذر، حال قوله تعالى: فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ «۱» الآية، لاشتمال هذه السورة أيضا على قوله تعالى: ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً إلى آخر الآيات، و هى قريبة المضمون من قوله فى سورة الحجر وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إلخ، و إن كانت السورة نازلة نجوما فظاهر السياق أن صدرها قد نزل فى بدء الرسالة. و ثالثا: أن قوله: إن الروايات الدالة على نزول القرآن فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور جملة واحدة قبل البعثة ثم نزول الآيات نجوما على رسول اللّه أخبار مجعولة خرافية لمخالفتها الكتاب و عدم استقامة مضمونها، و إن المراد باللوح المحفوظ هو عالم الطبيعة، و بالبيت المعمور كرة الأرض خطأ و فرية. أما أولا: فلأنه لا شىء من ظاهر الكتاب يخالف هذه الأخبار على ما عرفت. و أما ثانيا: فلأن الأخبار خالية عن كون النزول الجملى قبل البعثة بل الكلمة مما أضافها هو إلى مضمونها من غير تثبت. و أما ثالثا: فلأن قوله: إن اللوح المحفوظ هو عالم الطبيعة تفسير شنيع- و إنه أضحوكة- و ليت شعرى ما هو الوجه المصحح- على قوله- لتسمية عالم الطبيعة فى كلامه تعالى لوحا محفوظا؟ أ ذلك لكون هذا العالم محفوظا عن التغير و التحول؟ فهو عالم الحركات، سيال الذات، متغير الصفات! أو لكونه محفوظا عن الفساد تكوينا أو تشريعا؟ فالواقع خلافه! أو لكونه محفوظا عن اطلاع غير أهله عليه؟ كما يدل عليه قوله تعالى:

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ. لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ «۲»، فإدراك المدركين فيه على السواء!.

(۱) المدثر- ۱۱. (۲) الواقعة- ۷۷ إلى ۷۹. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۶۱ و بعد اللتيا و التى: لم يأت هذا الباحث فى توجيهه نزول القرآن فى شهر رمضان بوجه محصل يقبله لفظ الآية، فإن حاصل توجيهه: أن معنى: أنزل فيه القرآن: كأنما أنزل فيه القرآن، و معنى: إنا أنزلناه فى ليلة: كأنا أنزلناه فى ليلة، و هذا شىء لا يحتمله لغة العرف لهذا السياق!. و لو جاز لقائل أن يقول: نزل القرآن ليلة القدر على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لنزول سورة الفاتحة المشتملة على جمل معارف القرآن جاز أن يقال: إن معنى نزول القرآن نزوله جملة واحدة أى نزول إجمال معارفه على قلب رسول اللّه من غير مانع يمنع كما مرّ بيانه سابقا. و فى كلامه جهات أخرى من الفساد تركنا البحث عنها لخروجها عن غرضنا فى المقام ... «۱».

(*** ۱) انظر المجلد الثانى من الميزان ص ۱۵. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۶۲

عمدة البيان فى ترتيب القرآن

اشارة

عمدة البيان فى ترتيب القرآن فى ثلاثة فصول:

الفصل الأول معنى الأجزاء و الأحزاب القرآنية

الفصل الأول معنى الأجزاء و الأحزاب القرآنية إن للقرآن الكريم أجزاء يعرف بها كالجزء و الحزب و العشر و غير ذلك و الذى ينتهى اعتباره إلى عناية من نفس الكتاب العزيز اثنان منها و هما السورة و الآية فقد كرر اللّه سبحانه ذكرهما فى كلامه كقوله: سُورَةٌ أَنْزَلْناها «۱» و قوله: قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ «۲». و غير ذلك. و قد كثر استعماله فى لسان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الصحابة و الأئمة كثرة لا تدع ريبا فى أن لها حقيقة فى القرآن الكريم و هى مجموعة من الكلام الإلهى مبدوءة بالبسملة مسوقة لبيان غرض، و هو معرف للسورة مطرد غير منقوض إلّا ببراءة و قد ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام أنها آيات من سورة الأنفال، و إلّا بما ورد عنهم عليهم السّلام أن الضحى و أ لم نشرح سورة واحدة و أن الفيل و الإيلاف سورة واحدة. و نظيره القول فى الآية فقد تكرر فى كلامه تعالى إطلاق الآية على قطعة من الكلام كقوله: وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً «۳»، و قوله:

(۱) النور- ۱. (۲) يونس- ۳۸. (۳) الأنفال- ۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۶۳ كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا «۱»، و قد روى عن أم سلمة أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و قد روى عن أم سلمة أن النبى كان يقف على رءوس الآى و صح أن سورة الحمد سبع آيات، و روى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن سورة الملك ثلاثون آية إلى غير ذلك مما يدل على وقوع العدد على الآيات فى كلام النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و الذى يعطيه التأمل فى انقسام الكلام العربى إلى قطع و فصول بالطبع و خاصة فيما كان من الكلام مسجعا ثم التدبر فيما ورد عن النبى و آله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى أعداد الآيات أن الآية من القرآن هى قطعة من الكلام من حقها أن تعتمد عليها التلاوة بفصلها عما قبلها و عما بعدها. و يختلف ذلك باختلاف السياقات و خاصة فى السياقات المسجّعة فربما كانت كلمة واحدة كقوله: مُدْهامَّتانِ «۲» و ربما كانت كلمتين فصاعدا كلاما أو غير كلام كقوله: الرَّحْمنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسانَ. عَلَّمَهُ الْبَيانَ «۳» و قوله: الْحَاقَّةُ. مَا الْحَاقَّةُ. وَ ما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ «۴»، و ربما طالت كآية الدين من سورة البقرة آية: ۲۸۲.

(_____ ۱) حم السجدة- ۳. (۲) الرحمن- ۶۴. (۳) الرحمن- ۱ إلى ۴. (۴) الحاقة- ۱ إلى ۳. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۶۴

الفصل الثانى عدد السور القرآنية

الفصل الثانى عدد السور القرآنية أما عدد السور القرآنية فهى مائة و أربع عشرة سورة على ما جرى عليه الرسم فى المصحف الدائر بيننا و هو مطابق للمصحف العثمانى، و قد تقدم كلام أئمة أهل البيت عليهم السّلام فيه، و أنهم لا يعدون براءة سورة مستقلة و يعدون الضحى و أ لم نشرح سورة واحدة و يعدون الفيل و الإيلاف سورة واحدة. و أما عدد الآى فلم يرد فيه نص متواتر يعرف الآى و يميز كل آية من غيرها و لا شىء من الآحاد يعتمد عليه، و من أوضح الدليل على ذلك اختلاف أهل العدد فيما بينهم و هم المكيون و المدنيون و الشاميون و البصريون و الكوفيون. فقد قال بعضهم: إن مجموع القرآن ستة آلاف آية، و قال بعضهم: ستة آلاف و مائتان و أربع آيات، و قيل: و أربع عشرة، و قيل: و تسع عشرة و قيل: و خمس و عشرون، و قيل: و ست و ثلاثون. و قد روى المكيون عددهم عن عبد اللّه بن كثير عن مجاهد عن ابن عباس عن أبى بن كعب، و للمدنيين عددان ينتهى أحدهما إلى أبى جعفر مرثد بن القعقاع و شيبة بن نصاح، و الآخر إلى إسماعيل بن جعفر بن أبى كثير الأنصارى و روى أهل الشام عددهم عن أبى الدرداء، و ينتهى عدد أهل البصرة إلى عاصم بن العجاج الجحدرى، و يضاف عدد أهل الكوفة إلى حمزة و الكسائى و خلف قال حمزة أخبرنا بهذا العدد ابن أبى ليلى عن أبى عبد الرحمن السلمى عن على بن أبى طالب. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۶۵ و بالجملة لما كانت الأعداد لا تنتهى إلى نص متواتر أو واحد يعبا به و يجوز الركون إليه و يتميز به كلّ آية عن أختها لا ملزم للأخذ بشىء منها فما كان منها بينا ظاهر الأمر فهو و إلّا فللباحث المتدبر أن يختار ما أدى إليه نظره. و الذى روى عن على عليه السّلام من عدد الكوفيين معارض بأن البسملة غير معدودة فى شىء من السور ما خلا فاتحة الكتاب من آياتها مع أن المروى عنه عليه السّلام و عن غيره من أئمة أهل البيت عليه السّلام أن البسملة آية من القرآن و هى جزء من كل سورة افتتحت بها و لازم ذلك زيادة العدد بعدد البسملات. و هذا هو الذى صرفنا عن إيراد تفاصيل ما ذكروه من العدد هاهنا، و ذكر ما اتفقوا على عدده من السور القرآنية و هى أربعون سورة و ما اختلفوا فى عدده أو فى رءوس آية من السور و هى أربع و سبعون سورة و كذا ما اتفقوا على كونه آية تامة أو على عدم كونه آية مثل الر أينما وقع من القرآن و ما اختلف فيه، و على من أراد الاطلاع على تفصيل ذلك أن يراجع مظانه. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۶۶

الفصل الثالث فى ترتيب السور نزولا

الفصل الثالث فى ترتيب السور نزولا نقل فى الإتقان عن ابن الضريس فى فضائل القرآن قال: حدثنا محمد ابن عبد اللّه بن أبى جعفر الرازى، أنبأنا عمرو بن هارون، حدثنا عثمان بن عطاء الخراسانى عن أبيه عن ابن عباس قال: كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد اللّه فيها ما شاء. و كان أول ما أنزل من القرآن اقرأ باسم ربك، ثم ن، ثم يا أيها المزمل، ثم يا أيها المدثر، ثم تبت يدا أبى لهب، ثم إذا الشمس كورت، ثم سبح اسم ربك الأعلى، ثم و الليل إذا يغشى، ثم و الفجر، ثم و الضحى، ثم أ لم نشرح، ثم و العصر، ثم و العاديات، ثم إنا أعطيناك، ثم ألهاكم التكاثر، ثم أ رأيت الذى يكذب، ثم قل يا أيها الكافرون، ثم أ لم تر كيف فعل ربك، ثم قل أعوذ برب الفلق، ثم قل أعوذ برب الناس، ثم قل هو اللّه أحد، ثم و النجم، ثم عبس، ثم إنا أنزلناه فى ليلة القدر، ثم و الشمس و ضحاها، ثم و السماء ذات البروج، ثم التين، ثم لإيلاف قريش، ثم القارعة، ثم لا أقسم بيوم القيامة، ثم ويل لكل همزة، ثم و المرسلات، ثم ق، ثم لا أقسم بهذا البلد، ثم و السماء و الطارق، ثم اقتربت الساعة، ثم ص، ثم الأعراف، ثم قل أوحى، ثم يس، ثم الفرقان، ثم الملائكة، ثم كهيعص، ثم طه، ثم الواقعة، ثم طسم الشعراء، ثم طس، ثم القصص، ثم بنى إسرائيل، ثم يونس، ثم هود، ثم

يوسف، ثم الحجر، ثم الأنعام، ثم الصافات، ثم لقمان، ثم سبأ، ثم الزمر، ثم حم المؤمن، ثم حم السجدة، ثم حمعسق، ثم حم الزخرف، ثم الدخان، ثم الجاثية، ثم الأحقاف، ثم الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۶۷ الذاريات، ثم الغاشية، ثم الكهف، ثم النحل، ثم إنا أرسلنا نوحا، ثم سورة إبراهيم، ثم الأنبياء، ثم المؤمنين، ثم تنزيل السجدة، ثم الطور، ثم تبارك الملك، ثم الحاقة، ثم سأل، ثم عم يتساءلون، ثم النازعات، ثم إذا السماء انفطرت، ثم إذا السماء انشقت، ثم الروم، ثم العنكبوت، ثم ويل للمطففين، فهذا ما أنزل اللّه بمكة. ثم أنزل اللّه بالمدينة سورة البقرة، ثم الأنفال، ثم آل عمران، ثم الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء، ثم إذا زلزلت، ثم الحديد، ثم القتال، ثم الرعد، ثم الرحمن، ثم الإنسان، ثم الطلاق، ثم لم يكن، ثم الحشر، ثم إذا جاء نصر اللّه، ثم النور، ثم الحج، ثم المنافقون، ثم المجادلة، ثم الحجرات، ثم التحريم، ثم الجمعة، ثم التغابن، ثم الصف، ثم الفتح، ثم المائدة، ثم براءة. و قد سقطت من الرواية سورة فاتحة الكتاب و ربما قيل: إنما نزلت مرتين مرة بمكة و مرة بالمدينة. و نقل فيه عن البيهقى فى دلائل النبوة أنه روى بإسناده عن عكرمة و الحسين بن أبى الحسن قالا: أنزل اللّه من القرآن بمكة اقرأ باسم ربك و ساقا الحديث نحو حديث عطاء السابق عن ابن عباس إلّا أنه قد سقط منه الفاتحة و الأعراف و كهيعص مما نزل بمكة. و أيضا ذكر فيه حم الدخان قبل حم السجدة ثم إذا السماء انشقت قبل إذا السماء انفطرت ثم ويل للمطففين قبل البقرة مما نزل بالمدينة ثم آل عمران قبل الأنفال ثم المائدة قبل الممتحنة. ثم روى البيهقى بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال: إن أول ما أنزل اللّه على نبيه من القرآن اقرأ باسم ربك، الحديث و هو مطابق لحديث عكرمة فى الترتيب و قد ذكرت فيه السور التى سقطت من حديث عكرمة فيما نزل بمكة. و فيه عن كتاب الناسخ و المنسوخ لابن حصار أن المدنى باتّفاق عشرون سورة و المختلف فيه اثنتا عشرة سورة و ما عدا ذلك مكى باتفاق، انتهى. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۶۸ و الذى اتفقوا عليه من المدنيات البقرة و آل عمران و النساء و المائدة و الأنفال و التوبة و النور و الأحزاب و سورة محمد و الفتح و الحجرات و الحديد و المجادلة و الحشر و الممتحنة و المنافقون و الجمعة و الطلاق و التحريم و النصر. و ما اختلفوا فى مكيته و مدنيته سورة الرعد و الرحمن و الجن و الصف و التغابن و المطففين و القدر و البينة و الزلزال و التوحيد و المعوذتان. و للعلم بمكية السور و مدنيتها ثمّ ترتيب نزولها أثر هام فى الأبحاث المتعلقة بالدعوة النبوية و سيرها الروحى و السياسى و المدنى فى زمنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تحليل سيرته الشريفة و الروايات- كما ترى- لا تصلح أن تنهض حجة معتمدا عليها فى إثبات شىء من ذلك على أن فيما بينها من التعارض ما يسقطها عن الاعتبار. فالطريق المتعين لهذا الغرض هو التدبر فى سياق الآيات و الاستمداد بما يتحصل من القرائن و الأمارات الداخلية و الخارجية، و على ذلك نجرى فى هذا الكتاب و اللّه المستعان ... «۱»_____». ***

(۱) انظر هذا المبحث فى المجلد الثالث عشر من الميزان ص ۲۲۶. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۶۹

المحكم و المتشابه و التأويل فى القرآن الكريم

اشارة

المحكم و المتشابه و التأويل فى القرآن الكريم اختلف القوم فى المقام، و قد شاع الخلاف و اشتد الانحراف بينهم، و ينسحب ذيل النزاع و المشاجرة إلى الصدر الأول من مفسرى الصحابة و التابعين، و قلما يوجد فى ما نقل إلينا من كلامهم ما يقرب مما مرّ من البيان فضلا عن أن ينطبق عليه تمام الانطباق. و السبب العمدة فى ذلك الخلط بين البحث عن المحكم و المتشابه و بين البحث عن معنى التأويل، فأوجب ذلك اختلالا عجيبا فى عقد المسألة و كيفية البحث و النتيجة المأخوذة منه، و نحن نورد تفصيل القول فى كل واحد من أطراف هذه الأبحاث و ما قيل فيها و ما هو المختار من الحق مع تمييز مورد البحث بما تيسر فى ضمن فصول:

الفصل الأول المحكم و المتشابه

اشارة

الفصل الأول المحكم و المتشابه الإحكام و التشابه من الألفاظ المتعددة المفاهيم فى اللغة، و قد وصف بها الكتاب كما فى قوله تعالى: كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ «۱» و قوله تعالى: كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ «۲» و لم يتصف بهما إلّا جملة الكتاب من جهة إتقانه فى نظمه و بيانه و من جهة تشابه نظمه و بيانه فى البلوغ إلى غاية الإتقان و الإحكام.

(_____ ۱) هود- ۱. (۲) الزمر- ۲۳. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۷۰ لكن قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ «۱» الآية، لما اشتمل على تقسيم نفس آيات الكتاب إلى المحكمات و المتشابهات علمنا أن المراد بالإحكام و التشابه هاهنا غير ما يتصف به تمام الكتاب

[الأقوال فى معنى المحكم و المتشابه

اشارة

[الأقوال فى معنى المحكم و المتشابه و كان من الحرى البحث عن معناهما و تشخيص مصداقهما من الآيات، و فيه أقوال ربما تجاوزت العشرة:

أحدها: أن المحكمات هو قوله تعالى: قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً «۲» إلى آخر الآيات الثلاث و المتشابهات هى التى تشابهت على اليهود

أحدها: أن المحكمات هو قوله تعالى: قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً «۲» إلى آخر الآيات الثلاث و المتشابهات هى التى تشابهت على اليهود ، و هى الحروف المقطعة النازلة فى أوائل عدة من السور القرآنية مثل الم و الر و حم، و ذلك أن اليهود أولوها على حساب الجمل، فطلبوا أن يستخرجوا منها مدة بقاء هذه الأمة و عمرها فاشتبه عليهم الأمر نسب إلى ابن عباس من الصحابة. و فيه أنه قول من غير دليل و لو سلم فلا دليل على انحصارهما فيهما، على أن لازمه وجود قسم ثالث ليس بمحكم و لا- متشابه مع أن ظاهر الآية يدفعه. لكن الحق أن النسبة فى غير محلها، و الذى نقل عن ابن عباس أنه قال: إن الآيات الثلاث من المحكمات لا أن المحكمات هى الآيات الثلاث، ففى الدر المنثور أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه ابن مردويه عن عبد اللّه بن قيس سمعت ابن عباس يقول فى قوله منه آيات محكمات، قال: الثلاث آيات من آخر سورة الأنعام محكمات: قل تعالوا، و الآيتان بعدها. و يؤيد ذلك ما رواه عنه أيضا فى قوله: آياتٌ مُحْكَماتٌ، قال: من هاهنا: قل تعالوا إلى آخر ثلاث آيات، و من هاهنا: وَ قَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ إلى آخر ثلاث آيات، فالروايتان تشهدان أنه إنما ذكر هذه الآيات مثالا لسائر المحكمات لا أنه قصرها فيها.

و ثانيها: عكس الأول و هو أن المحكمات هى الحروف المقطعة فى فواتح السور و المتشابهات غيرها

و ثانيها: عكس الأول و هو أن المحكمات هى الحروف المقطعة فى فواتح السور و المتشابهات غيرها . نقل ذلك عن أبى فاختة حيث ذكر فى (_____ ۱) آل عمران- ۷. (۲) الأنعام- ۱۵۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۷۱ قوله تعالى: هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ أنهن فواتح السور منها يستخرج القرآن الم

ذلِكَ الْكِتابُ منها استخرجت البقرة و الم. اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، منها استخرجت آل عمران. و عن سعيد بن جبير مثله فى معنى قوله: هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ، قال: أصل الكتاب لأنهن مكتوبات فى جميع الكتب، انتهى. و يدل ذلك على أنهما يذهبان فى معنى فواتح السور إلى أن المراد بها ألفاظ الحروف بمعنى أن الكتاب الذى نزل عليكم هو هذه الحروف المقطعة التى تتألف منها الكلمات و الجمل، كما هو أحد المذاهب فى معنى فواتح السور. و فيه: مضافا إلى أنه مبنى على ما لا دليل عليه أصلا أعنى تفسير الحروف المقطعة فى فواتح السور بما عرفت أنه لا ينطبق على نفس الآية فإن جميع القرآن غير فواتح السور يصير حينئذ من المتشابه، و قد ذمّ اللّه سبحانه اتباع المتشابه وعده من زيغ القلب مع أنه تعالى مدح اتباع القرآن بل عده من أوجب الواجبات كقوله تعالى: وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ «۱» و غيره من الآيات.

و ثالثها: أن المتشابه هو ما يسمى مجملا و المحكم هو المبين.

و ثالثها: أن المتشابه هو ما يسمى مجملا و المحكم هو المبين. و فيه: أن ما بيّن من أوصاف المحكم و المتشابه فى الآية لا ينطبق على المجمل و المبين. بيان ذلك: أن إجمال اللفظ هو كونه بحيث يختلط و يندمج بعض جهات معناه ببعض فلا تنفصل الجهة المرادة عن غيرها، و يوجب ذلك تحير المخاطب أو السامع فى تشخيص المراد و قد جرى دأب أهل اللسان فى طرف التفاهم أن لا يتبعوا ما هذا شأنه من الألفاظ بل يستريحون إلى لفظ آخر مبين يبين هذا المجمل فيصير بذلك مبينا فيتبع فهذا حال المجمل مع مبينه، فلو كان المحكم و المتشابه هما المجمل و المبين بعينهما كان المتبع هو المتشابه إذا رد إلى المحكم دون نفس المحكم، و كان هذا الاتباع مما لا يجوزه قريحة التكلم و التفاهم فلم يقدم على مثله

(_____ ۱) الأعراف- ۱۵۷. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۷۲ أهل اللسان سواء فى ذلك أهل الزيغ منهم و الراسخون فى العلم و لم يكن اتباع المتشابه أمرا يلحقه الذم و يوجب زيغ القلب.

رابعها: أن المتشابهات هى الآيات المنسوخة لأنها يؤمن بها و لا يعمل بها، و المحكمات هى الآيات الناسخة

رابعها: أن المتشابهات هى الآيات المنسوخة لأنها يؤمن بها و لا يعمل بها، و المحكمات هى الآيات الناسخة لأنها يؤمن بها و يعمل بها، و نسب إلى ابن عباس و ابن مسعود و ناس من الصحابة، و لذلك كان ابن عباس يحسب أنه يعلم تأويل القرآن. و فيه: أنه على تقدير صحته لا دليل فيه على انحصار المتشابهات فى الآيات المنسوخة فإن الذى ذكره تعالى من خواص اتباع المتشابه من ابتغاء الفتنة و ابتغاء التأويل جار فى كثير من الآيات غير المنسوخة كآيات الصفات و الأفعال، على أن لازم هذا القول وجود الواسطة بين المحكم و المتشابه. و فيما نقل عن ابن عباس ما يدل على أن مذهبه فى المحكم و المتشابه أعم مما ينطبق على الناسخ و المنسوخ، و أنّه إنما ذكرهما من باب المثال ففى الدر المنثور أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق على عن ابن عباس قال: المحكمات ناسخه و حلاله و حرامه و حدوده و فرائضه و ما يؤمن به، و المتشابهات منسوخه و مقدمه و مؤخره و أمثاله و أقسامه و ما يؤمن به و لا يعمل به، انتهى.

خامسها: أن المحكمات ما كان دليله واضحا لائحا كدلائل الوحدانية و القدرة و الحكمة، و المتشابهات ما يحتاج فى معرفته إلى تأمل

خامسها: أن المحكمات ما كان دليله واضحا لائحا كدلائل الوحدانية و القدرة و الحكمة، و المتشابهات ما يحتاج فى معرفته إلى تأمل و تدبر. و فيه: أنه إن كان المراد من كون الدليل واضحا لائحا أو محتاجا إلى التأمل و التدبر كون مضمون الآية ذا دليل عقلى قريب

من البداهة أو بديهى و عدم كونه كذلك كان لازمه كون آيات الأحكام و الفرائض و نحوها من المتشابه لفقدانها الدليل العقلى اللائح الواضح، و حينئذ يكون اتباعها مذموما مع أنها واجبة الاتباع، و إن كان المراد به كونه ذا دليل واضح لائح من نفس الكتاب و عدم كونه كذلك فجميع الآيات من هذه الجهة على وتيرة واحدة، و كيف لا؟ و هو كتاب متشابه مثانى، و نور، و مبين، و لازمه كون الجميع محكما و ارتفاع المتشابه المقابل له من الكتاب و هو خلاف الفرض و خلاف النص. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۷۳

سادسها: أن المحكم كل ما أمكن تحصيل العلم به بدليل جلى أو خفى، و المتشابه ما لا سبيل إلى العلم به

سادسها: أن المحكم كل ما أمكن تحصيل العلم به بدليل جلى أو خفى، و المتشابه ما لا سبيل إلى العلم به كوقت قيام الساعة و نحوه. و فيه: أن الإحكام و التشابه صفتان لآية الكتاب من حيث إنها آية أى دالة على معرفة من المعارف الإلهية، و الذى تدل عليه آية من آيات الكتاب ليس بعادم للسبيل، و لا ممتنع الفهم إما بنفسه أو بضميمة غيره، و كيف يمكن أن يكون هناك أمر مراد من لفظ الآية و لا يمكن نيله من جهة اللفظ؟ مع أنه وصف كتابه بأنه هدى و أنه نور، و أنه مبين، و أنه فى معرض فهم الكافرين فضلا عن المؤمنين حيث قال: تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيراً وَ نَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ «۱» و قال تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «۲»، فما تعرضت له آية من آيات الكتاب ليس بممتنع الفهم، و لا الوقوف عليه مستحيل، و ما لا سبيل إلى الوقوف عليه كوقت قيام الساعة و سائر ما فى الغيب المكنون لم يتعرض لبيانه آية من الآيات بلفظها حتى تسمى متشابها. على أن فى هذا القول خلطا بين معنى المتشابه و تأويل الآية كما مرّ.

سابعها: أن المحكمات آيات الأحكام و المتشابهات غيرها

سابعها: أن المحكمات آيات الأحكام و المتشابهات غيرها مما يصرف بعضها بعضا، نسب هذا القول إلى مجاهد و غيره. و فيه: أن المراد بالصرف الذى ذكره إن كان مطلق ما يعين على تشخيص المراد باللفظ حتى يشمل مثل التخصيص بالمخصص، و التقييد بالمقيد و سائر القرائن المقامية كانت آيات الأحكام أيضا كغيرها متشابهات، و إن كان خصوص ما لا إبهام فى دلالته على المراد و لا كثرة فى محتملاته حتى يتعين المراد به بنفسه، و يتعين المراد بغيره بواسطته كان لازم كون ما سوى آيات الأحكام متشابهة أن لا يحصل العلم بشىء من معارف القرآن غير الأحكام لأن المفروض عدم وجود آية محكمة فيها ترجع إليها المتشابهات منها، و يتبيّن بذلك معانيها (_____. ۱) حم السجدة- ۲ إلى ۴. (۲) النساء- ۸۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۷۴

ثامنها: أن المحكم من الآيات ما لا يحتمل من التأويل إلّا وجها واحدا و المتشابه ما احتمل من التأويل أوجها

ثامنها: أن المحكم من الآيات ما لا يحتمل من التأويل إلّا وجها واحدا و المتشابه ما احتمل من التأويل أوجها كثيرة و نسب إلى الشافعى، و كأن المراد به أن المحكم ما لا ظهور له إلّا فى معنى واحد كالنص و الظاهر القوى فى ظهوره و المتشابه خلافه. و فيه: أنه لا يزيد على تبديل اللفظ شيئا، فقد بدّل لفظ المحكم بما ليس له إلّا معنى واحد، و المتشابه بما يحتمل معانى كثيرة، على أنه أخذ التأويل بمعنى التفسير أى المعنى المراد باللفظ و قد عرفت أنه خطأ، و لو كان التأويل هو التفسير بعينه لم يكن لاختصاص علمه باللّه، أو باللّه و بالراسخين فى العلم وجه فإن القرآن يفسر بعضه بعضا، و المؤمن و الكافر و الراسخين فى العلم و أهل الزيغ فى ذلك سواء.

تاسعها: أن المحكم ما أحكم و فصل فيه خبر الأنبياء مع أممهم، و المتشابه ما اشتبهت ألفاظه من قصصهم

تاسعها: أن المحكم ما أحكم و فصل فيه خبر الأنبياء مع أممهم، و المتشابه ما اشتبهت ألفاظه من قصصهم بالتكرير فى سور متعددة، و لازم هذا القول اختصاص التقسيم بآيات القصص. و فيه: أنه لا دليل على هذا التخصيص أصلا، على أن الذى ذكره تعالى من خواص المحكم و المتشابه و هو ابتغاء الفتنة و ابتغاء التأويل فى اتباع المتشابه دون المحكم لا ينطبق عليه، فإن هذه الخاصة توجد فى غير آيات القصص كما توجد فيها، و توجد فى القصة الواحدة كقصة جعل الخلافة فى الأرض كما توجد فى القصص المتكررة.

عاشرها: أن المتشابه ما يحتاج إلى بيان و المحكم خلافه

عاشرها: أن المتشابه ما يحتاج إلى بيان و المحكم خلافه ، و هذا الوجه منسوب إلى الإمام أحمد. و فيه: أن آيات الأحكام محتاجة إلى بيان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع أنها من المحكمات قطعا لما تقدم بيانه مرارا، و كذا الآيات المنسوخة من المتشابه كما تقدم مع عدم احتياجها إلى بيان لكونها نظائر لسائر آيات الأحكام.

الحادى عشر: أن المحكم ما يؤمن به و يعمل به و المتشابه ما يؤمن به و لا يعمل به

الحادى عشر: أن المحكم ما يؤمن به و يعمل به و المتشابه ما يؤمن به و لا يعمل به ، و نسب إلى ابن تيمية، و لعل المراد به: أن الأخبار متشابهات و الإنشاءات محكمات كما استظهره بعضهم و إلّا لم يكن قولا برأسه لصحة انطباقه على عدة من الأقوال المتقدمة. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۷۵ و فيه: أن لازمه كون غير آيات الأحكام متشابهات، و لازمه أن لا يمكن حصول العلم بشىء من المعارف الإلهية فى غير الأحكام إذ لا يتحقق فيها عمل مع عدم وجود محكم فيها يرجع إليه ما تشابه منها، و من جهة أخرى: الآيات المنسوخة إنشاءات و ليست بمحكمات قطعا. و الظاهر أن مراده من الإيمان و العمل بالمحكم و الإيمان من غير عمل بالمتشابه ما يدل عليه لفظ الآية: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا «۱»، إلّا أن الأمرين أعنى الإيمان و العمل معا فى المحكم و الإيمان فقط فى المتشابه لما كانا وظيفتين لكل من آمن بالكتاب كان عليه أن يشخص المحكم و المتشابه قبلا حتى يؤدى وظيفته، و على هذا فلا يكفى معرفة المحكم و المتشابه بهما فى تشخيص مصداقهما و هو ظاهر.

الثانى عشر: أن المتشابهات هى آيات الصفات خاصة

الثانى عشر: أن المتشابهات هى آيات الصفات خاصة أعم من صفات اللّه سبحانه كالعليم و القدير و الحكيم و الخبير، و صفات أنبيائه كقوله تعالى فى عيسى بن مريم عليه السّلام: وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ «۲» و ما يشبه ذلك، نسب إلى ابن تيمية. و فيه: أنه مع تسليم كون آيات الصفات من المتشابهات لا دليل على انحصارها فيها. و الذى يظهر من بعض كلامه المنقول على طوله: أنه يأخذ المحكم و المتشابه بمعناهما اللغوى و هو ما أحكمت دلالته و ما تشابهت احتمالاته و المعنيان نسبيان فربما اشتبهت دلالة آية على قوم كالعامة و علمها آخرون بالبحث و هم العلماء، و هذا المعنى فى آيات الصفات أظهر فإنها بحيث تشتبه مراداتها لغالب الناس لكون أفهامهم قاصرة عن الارتقاء إلى ما وراء الحس، فيحسبون ما أثبته اللّه تعالى لنفسه من العلم و القدرة و السمع و البصر و الرضا و الغضب و اليد و العين و غير ذلك أمورا جسمانية أو معانى ليست بالحق، و تقوم بذلك الفتن، و تظهر البدع، و تنشأ المذاهب فهذا معنى المحكم و المتشابه، و كلاهما مما يمكن أن يحصل به العلم، و الذى لا

(_____ ۱) آل عمران- ۷. (۲) النساء- ۱۷۱.

الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۷۶ يمكن نيله و العلم به هو تأويل المتشابهات بمعنى حقيقة المعانى التى تدل عليها أمثال آيات الصفات، فهب أنّا علمنا معنى قوله إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، و أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ و نحو ذلك لكنا لا ندرى حقيقة علمه و قدرته و سائر صفاته و كيفية أفعاله الخاصة به، فهذا هو تأويل المتشابهات التى لا يعلمها إلّا اللّه تعالى، انتهى ملخصا، و سيأتى ما يتعلق بكلامه من البحث عند ما نتكلم فى التأويل إن شاء اللّه.

الثالث عشر: أن المحكم ما للعقل إليه سبيل و المتشابه بخلافه.

الثالث عشر: أن المحكم ما للعقل إليه سبيل و المتشابه بخلافه. و فيه: أنه قول من غير دليل، و الآيات القرآنية و إن انقسمت إلى ما للعقل إليه سبيل و ما ليس للعقل إليه سبيل، لكن ذلك لا يوجب كون المراد بالمحكم و المتشابه فى هذه الآية استيفاء هذا التقسيم، و شىء مما ذكر فيها من نعوت المحكم و المتشابه لا- ينطبق عليه انطباقا صحيحا، على أنه منقوض بآيات الأحكام فإنها محكمة و لا سبيل للعقل إليها.

الرابع عشر: أن المحكم ما أريد به ظاهره و المتشابه ما أريد به خلاف ظاهره

الرابع عشر: أن المحكم ما أريد به ظاهره و المتشابه ما أريد به خلاف ظاهره ، و هذا قول شائع عند المتأخرين من أرباب البحث، و عليه يبتنى اصطلاحهم فى التأويل: أنه المعنى المخالف لظاهر الكلام، و كأنّه أيضا مراد من قال: إن المحكم ما تأويله تنزيله، و المتشابه ما لا يدرك إلّا بالتأويل. و فيه: أنه اصطلاح محض لا ينطبق عليه ما فى الآية من وصف المحكم و المتشابه فإنّ المتشابه إنما هو متشابه من حيث تشابه مراده و مدلوله، و ليس المراد بالتأويل المعنى المراد من المتشابه حتى يكون المتشابه متميزا عن المحكم بأن له تأويلا بل المراد بالتأويل فى الآية أمر يعم جميع الآيات القرآنية من محكمها و متشابهها كما مرّ بيانه. على أنه ليس فى القرآن آية أريد فيها ما يخالف ظاهرها، و ما يوهم ذلك من الآيات إنما أريد بها معان تعطيها لها آيات أخر محكمة، و القرآن يفسر بعضه بعضا، و من المعلوم أن المعنى الذى تعطيه القرائن- متصلة أو منفصلة- للفظ ليس بخارج عن ظهوره و بالخصوص فى كلام نص متكلمه على أن ديدنه أن يتكلم بما يتصل بعضه ببعض، و يشهد بعضه على بعض الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۷۷ و يرتفع كل اختلاف و تناف متراء بالتدبر فيه، قال تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «۱».

الخامس عشر: ما عن الأصم: أن المحكم ما أجمع على تأويله و المتشابه ما اختلف فيه

الخامس عشر: ما عن الأصم: أن المحكم ما أجمع على تأويله و المتشابه ما اختلف فيه و كأن المراد بالإجماع و الاختلاف كون مدلول الآية بحيث تختلف فيه الأنظار أو لا تختلف. و فيه: أن ذلك مستلزم لكون جميع الكتاب متشابها و ينافيه التقسيم الذى فى الآية إذ ما من آية من آى الكتاب إلّا و فيه اختلاف ما: إما لفظا أو معنى أو فى كونها ذات ظهور أو غيرها، حتى ذهب بعضهم إلى أن القرآن كله متشابه مستدلا بقوله تعالى: كِتاباً مُتَشابِهاً «۲»، غفلة عن أن هذا الاستدلال منه يبتنى على كون ما استدل به آية محكمة و هو يناقض قوله، و ذهب آخرون إلى أن ظاهر الكتاب ليس بحجة أى أنه لا ظاهر له.

السادس عشر: أن المتشابه ما أشكل تفسيره لمشابهته غيره

السادس عشر: أن المتشابه ما أشكل تفسيره لمشابهته غيره سواء كان الإشكال من جهة اللفظ أو من جهة المعنى، ذكره الراغب. قال

فى مفردات القرآن: و المتشابه من القرآن ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره، إما من حيث اللفظ، أو من حيث المعنى، فقال الفقهاء: المتشابه ما لا ينبئ ظاهره عن مراده، و حقيقة ذلك: أن الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب: محكم على الإطلاق، متشابه على الإطلاق، و محكم من وجه و متشابه من وجه. فالمتشابه فى الجملة ثلاثة أضرب: متشابه من جهة اللفظ فقط، و متشابه من جهة المعنى فقط، و متشابه من جهتهما. و المتشابه من جهة اللفظ ضربان: أحدهما يرجع إلى الألفاظ المفردة، و ذلك إما من جهة غرابته نحو الأب و يزفون، و إما من جهة مشاركة فى اللفظ كاليد و العين، و الثانى يرجع إلى جملة الكلام المركب، و ذلك ثلاثة أضرب: ضرب لاختصار الكلام نحو وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا ما

(۱) النساء- ۸۲. (۲) الزمر- ۲۳.

الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۷۸ طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ «۱» و ضرب لبسط الكلام نحو لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لأنه لو قيل ليس مثله شىء كان أظهر للسامع، و ضرب لنظم الكلام نحو أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً. قَيِّماً «۲» تقديره الكتاب قيما و لم يجعل له عوجا، و قوله: وَ لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ إلى قوله لَوْ تَزَيَّلُوا «۳». و المتشابه من جهة المعنى أوصاف اللّه تعالى و أوصاف يوم القيامة، فإن تلك الصفات لا تتصور لنا، إذ كان لا يحصل فى نفوسنا صورة ما لم نحسه، أو لم يكن من جنس ما لم نحسه. و المتشابه من جهة المعنى و اللفظ جميعا خمسة أضرب: الأول: من جهة الكمية كالعموم و الخصوص نحو فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ، و الثانى: من جهة الكيفية كالوجوب و الندب نحو فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ، و الثالث: من جهة الزمان كالناسخ و المنسوخ نحو اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ، و الرابع: من جهة المكان أو الأمور التى نزلت فيها نحو وَ لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها و قوله: إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ، فإن من لا يعرف عادتهم فى الجاهلية يتعذر عليه معرفة تفسير هذه الآية، و الخامس: من جهة الشروط التى بها يصح الفعل أو يفسد كشروط الصلاة و النكاح. و هذه الجملة إذا تصورت علم: أن كل ما ذكره المفسرون فى تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التفاسير نحو قول من قال المتشابه الم، و قول قتادة: المحكم الناسخ و المتشابه المنسوخ، و قول الأصم: المحكم ما أجمع على تأويله و المتشابه ما اختلف فيه. ثم جميع المتشابه على ثلاثة أضرب: ضرب لا سبيل للوقوف عليه كوقت الساعة و خروج دابة الأرض و كيفية الدابة و نحو ذلك. و ضرب للإنسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة و الأحكام المغلقة و ضرب متردد بين الأمرين، يجوز أن يختص بمعرفة حقيقته بعض الراسخين فى العلم

(۱) النساء- ۳. (۲) الكهف- ۱ و ۲.

(۳) الفتح- ۲۵. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۷۹ و يخفى على من دونهم، و هو الضرب المشار إليه بقوله عليه السّلام فى على رضى اللّه عنه: اللهم فقهه فى الدين و علمه التأويل، و قوله لابن عباس مثل ذلك، انتهى كلامه و هو أعم الأقوال فى معنى المتشابه جمع فيها بين عدة من الأقوال المتقدمة. و فيه: أولا- أن تعميمه المتشابه لموارد الشبهات اللفظية كغرابة اللفظ و إغلاق التركيب و العموم و الخصوص و نحوها لا- يساعد عليه ظاهر الآية فإن الآية جعلت المحكمات مرجعا يرجع إليه المتشابهات، و من المعلوم أن غرابة اللفظ و أمثالها لا تنحل عقدتها من جهة دلالة المحكمات، بل لها مرجع آخر ترجع إليه و تتضح به. و أيضا: الآية تصف المتشابهات بأنها من شأنها أن تتبع لابتغاء الفتنة، و من المعلوم: أن اتباع العام من غير رجوع إلى مخصصه، و المطلق من غير رجوع إلى مقيده و أخذ اللفظ الغريب مع الإعراض عما يفسره فى اللغة مخالف لطريقة أهل اللسان لا تجوزه قريحتهم فلا يكون بالطبع موجبا لإثارة الفتنة لعدم مساعدة اللسان عليه. و ثانيا: أن تقسيمه المتشابه بما يمكن فهمه لعامة الناس و ما لا يمكن فهمه لأحد و ما يمكن فهمه لبعض دون بعض ظاهر فى أنه يرى اختصاص التأويل بالمتشابه و قد عرفت خلافه. هذا هو المعروف من أقوالهم فى معنى المحكم و المتشابه و تمييز مواردهما و قد عرفت ما فيها، و عرفت أيضا أن الذى يظهر من الآية على ظهورها و سطوع نورها خلاف ذلك كله، و أن الذى تعطيه الآية فى معنى المتشابه أن تكون الآية مع حفظ كونها آية دالة على معنى مريب مردد لا من جهة اللفظ بحيث تعالجه الطرق المألوفة عند أهل اللسان كإرجاع العام و المطلق إلى المخصص و المقيد و نحو ذلك بل من جهة كون

معناها غير ملائم لمعنى آيـة أخرى محكمـة لا ريب فيه تبين حال المتشابهـة. و من المعلوم أن معنى آية من الآيات لا يكون على هذا الوصف إلّا مع كون ما يتبع من المعنى مألوفا مأنوسا عنـد الأفهام العامية تسرع الأذهان الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۸۰ الساذجة إلى تصديقه أو يكون ما يرام من تأويل الآية أقرب إلى قبول هذه الأفهام الضعيفة الإدراك و التعقل. و أنت إذا تتبعت البدع و الأهواء و المذاهب الفاسدة التى انحرفت فيها الفرق الإسلامية عن الحق القويم بعد زمن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سواء كان فى المعارف أو فى الأحكام وجدت أكثر مواردها من اتباع المتشابه، و التأويل فى الآيات بما لا يرتضيه اللّه سبحانه. ففرقة تتسمك من القرآن بآيات للتجسيم، و أخرى للجبر و أخرى للتفويض و أخرى لعثرة الأنبياء، و أخرى للتنزيه المحض بنفى الصفات، و أخرى للتشبيه الخالص و زيادة الصفات، إلى غير ذلك، كل ذلك للأخذ بالمتشابه من غير إرجاعه إلى المحكم الحاكم فيه. و طائفة ذكرت: أن الأحكام الدينية إنما شرّعت لتكون طريقا إلى الوصول فلو كان هناك طريق أقرب منها كان سلوكه متعينا لمن ركبه فإنما المطلوب هو الوصول بأى طريق اتفق و تيسر، و أخرى قالت: إن التكليف إنما هو لبلوغ الكمال، و لا معنى لبقائه بعد الكمال بتحقق الوصول فلا تكليف لكامل. و قد كانت الأحكام و الفرائض و الحدود و سائر السياسات الإسلامية قائمة و مقامة فى عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يشذ منها شاذ ثم لم تزل بعد ارتحاله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تنقص و تسقط حكما فحكما، يوما فيوما بيد الحكومات الإسلامية، و لم يبطل حكم أو حد إلّا و اعتذر المبطلون: أن الدين إنما شرع لصلاح الدنيا و إصلاح الناس، و ما أحدثوه أصلح لحال الناس اليوم، حتى آل الأمر إلى ما يقال: إن الغرض الوحيد من شرائع الدين إصلاح الدنيا بإجرائها، و الدنيا اليوم لا تقبل السياسة الدينية و لا تهضمها بل تستدعى وضع قوانين ترتضيها مدنية اليوم و اجرائها، و إلى ما يقال: إن التلبس بالأعمال الدينية لتطهير القلوب و هدايتها إلى الفكرة و الإرادة الصالحتين و القلوب المتدربة بالتربية الاجتماعية، و النفوس الموقوفة على خدمة الخلق فى غنى عن التطهر بأمثال الوضوء و الغسل و الصلاة و الصوم. إذا تأملت فى هذه و أمثالها- و هى لا تحصى كثرة- و تدبرت فى قوله الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۸۱ تعالى؛ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ «۱» الآية، لم تشك فى صحة ما ذكرناه، و قضيت بأن هذه الفتن و المحن التى غادرت الإسلام و المسلمين لم تستقر قرارها إلّا من طريق اتباع المتشابه، و ابتغاء تأويل القرآن. و هذا- و اللّه أعلم- هو السبب فى تشديد القرآن الكريم فى هذا الباب و إصراره البالغ على النهى عن اتباع المتشابه و ابتغاء الفتنة و التأويل و الإلحاد فى آيات اللّه و القول فيها بغير علم و اتباع خطوات الشيطان فإن من دأب القرآن أنه يبالغ فى التشديد فى موارد سينثلم من جهتها ركن من أركان الدين فتنهدم به بنيته كالتشديد الواقع فى تولى الكفار، و مودة ذوى القربى، و قرار أزواج النبى عليه السّلام، و معاملة الربا، و اتحاد الكلمة فى الدين و غير ذلك و لا يغسل رين الزيغ من القلوب و لا يسد طريق ابتغاء الفتنة اللذين منشأهما الركون إلى الدنيا و الإخلاد إلى الأرض و اتباع الهوى إلّا ذكر يوم الحساب كما قال تعالى: وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ «۲» و لذلك ترى الراسخين فى العلم المتأبين تأويل القرآن بما لا يرتضيه ربهم يشيرون إلى ذلك فى خاتمة مقالهم حيث يقولون: رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ.

(۱) آل عمران- ۷. (۲) ص- ۲۶.

الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۸۲

الفصل الثانى المحكمات أم الكتاب

الفصل الثانى المحكمات أم الكتاب ذكر جماعة: أن كون الآيات المحكمة أم الكتاب كونها أصلا فى الكتاب عليه تبتنى قواعد الدين و أركانها فيؤمن بها و يعمل بها، و ليس الدين إلّا مجموعا من الاعتقاد و العمل، و أما الآيات المتشابهة فهى لتزلزل مرادها و تشابه مدلولها لا يعمل بها بل إنما يؤمن بها إيمانا. و أنت بالتأمل فيما تقدم من الأقوال تعلم: أن هذا لازم بعض الأقوال المتقدمة، و

هى التى ترى أن المتشابه إنما صار متشابها لاشتماله على تأويل يتعذر الوصول إليه و فهمه، أو أن المتشابه يمكن حصول العلم به و رفع تشابهه فى الجملة أو بالجملة بالرجوع إلى عقل أو لغة أو طريقة عقلائية يستراح إليها فى رفع الشبهات اللفظية. و قال آخرون: إن معنى أمومة المحكمات رجوع المتشابهات إليها، و كلامهم مختلف فى تفسير هذا الرجوع، فظاهر بعضهم: أن المراد بالرجوع هو قصر المتشابهات على الإيمان و الاتباع العملى فى مواردها للمحكم كالآية المنسوخة يؤمن بها و يرجع فى موردها إلى العمل بالناسخة، و هذا القول لا يغاير القول الأول كثير مغايرة، و ظاهر بعض آخر أن معناها كون المحكمات مبينة للمتشابهات، رافعة لتشابهها. و الحق هو المعنى الثالث، فإن معنى الأمومة الذى يدل عليه قوله: هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ يتضمن عناية زائدة و هو أخص من معنى الأصل الذى فسرت به الأم فى القول الأوّل، فإن فى هذه اللفظة أعنى لفظة الأم عناية الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۸۳ بالرجوع الذى فيه انتشاء و اشتقاق و تبعض، فلا تخلو اللفظة عن الدلالة على كون المتشابهات ذات مداليل ترجع و تتفرع على المحكمات، و لازمه كون المحكمات مبينة للمتشابهات. على أن المتشابه إنما كان متشابها لتشابه مراده لا- لكونه ذا تأويل، فإن التأويل كما مرّ يوجد للمحكم كما يوجد للمتشابه، و القرآن يفسر بعضه بعضا فللمتشابه مفسر و ليس إلّا المحكم، مثال ذلك قوله تعالى: إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ «۱»، فإنها آية متشابهة، و بإرجاعها إلى قوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ «۲»، و قوله تعالى: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ «۳» يتبين: أن المراد بها نظرة و رؤية من غير سنخ رؤية البصر الحسى، و قد قال تعالى: ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى أَ فَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى «۴» إلى أن قال: لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى «۵»، فأثبت للقلب رؤية تخصّه، و ليس هو الفكر فإن الفكر إنما يتعلق بالتصديق و المركب الذهنى و الرؤية إنما تتعلق بالمفرد العينى، فيتبين بذلك أنه توجه من القلب ليست بالحسيّة الماديّة و لا بالعقلية الذهنية، و الأمر على هذه الوتيرة فى سائر المتشابهات (_____. ۱) القيامة- ۲۳. (۲) الشورى- ۱۱. (۳) الأنعام- ۱۰۳. (۴) النجم- ۱۱ و ۱۲. (۵) النجم- ۱۸. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۸۴

الفصل الثالث حقيقة التأويل فى القرآن الكريم

الفصل الثالث حقيقة التأويل فى القرآن الكريم فسر قوم من المفسرين التأويل بالتفسير و هو المراد من الكلام، و إذ كان المراد من بعض الآيات معلوما بالضرورة كان المراد بالتأويل على هذا من قوله تعالى: وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ «۱»، هو المعنى المراد بالآية المتشابهة فلا طريق إلى العلم بالآيات المتشابهة على هذا القول لغير اللّه سبحانه أو لغيره و غير الراسخين فى العلم. و قالت طائفة أخرى: إن المراد بالتأويل: هو المعنى المخالف لظاهر اللفظ و قد شاع هذا المعنى بحيث عاد اللفظ حقيقة ثانية فيه بعد ما كان بحسب اللفظ لمعنى مطلق الإرجاع أو المرجع. و كيف كان فهذا المعنى هو الشائع عند المتأخرين كما أن المعنى الأول هو الذى كان شائعا بين قدماء المفسرين، سواء فيه من كان يقول: إن التأويل لا يعلمه إلّا اللّه، و من كان يقول: إن الراسخين فى العلم أيضا يعلمونه كما نقل عن ابن عباس، أنه كان يقول: أنا من الراسخين فى العلم و أنا أعلم تأويله. و ذهبت طائفة أخرى: إلى أن التأويل معنى من معانى الآية لا يعلمه إلّا اللّه تعالى، أو لا يعلمه إلّا اللّه و الراسخون فى العلم مع عدم كونه خلاف ظاهر اللفظ فيرجع الأمر إلى أن للآية المتشابهة معانى متعددة بعضها تحت بعض، منها ما هو تحت اللفظ يناله جميع الأفهام، و منها ما هو أبعد منه لا يناله إلّا اللّه سبحانه أو هو تعالى و الراسخون فى العلم (_____. ۱) آل عمران- ۷. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۸۵ و قد اختلفت أنظارهم فى كيفية ارتباط هذه المعانى باللفظ فإن من المتيقن أنها من حيث كونها مرادة من اللفظ ليست فى عرض واحد و إلّا لزم استعمال اللفظ فى أكثر من معنى واحد و هو غير جائز على ما بين فى محله، فهى لا محالة معان مترتبة فى الطول: فقيل: إنها لوازم معنى اللفظ إلّا أنها لوازم مترتبة بحيث يكون للفظ معنى مطابقى و له لازم و للازمه لازم و هكذا، و قيل: إنها معان مترتبة بعضها على بعض ترتب الباطن على ظاهره، فإرادة المعنى المعهود المألوف إرادة لمعنى اللفظ و إرادة لباطنه بعين إرادته نفسه كما أنك إذا قلت: اسقنى فلا تطلب بذلك إلّا السقى و هو بعينه طلب

للإرواء، و طلب لرفع الحاجة الوجودية، و طلب للكمال الوجودى و ليس هناك أربعة أوامر و مطالب بل الطلب الواحد المتعلق بالسقى متعلق بعينه بهذه الأمور التى بعضها فى باطن بعض و السقى مرتبط بها و معتمد عليها. و هاهنا قول رابع: و هو أن التأويل ليس من قبيل المعانى المرادة باللفظ بل هو الأمر العينى الذى يعتمد عليه الكلام، فإن كان الكلام حكما إنشائيا كالأمر و النهى فتأويله المصلحة التى توجب إنشاء الحكم و جعله و تشريعه، فتأويل قوله: أقيموا الصلاة مثلا هو الحالة النورانية الخارجية التى تقوم بنفس المصلى فى الخارج فتنهاه عن الفحشاء و المنكر، و إن كان الكلام خبريا فإن كان إخبارا عن الحوادث الماضية كان تأويله نفس الحادثة الواقعة فى ظرف الماضى كالآيات المشتملة على أخبار الأنبياء و الأمم الماضية فتأويلها نفس القضايا الواقعة فى الماضى، و إن كان إخبارا عن الحوادث و الأمور الحالية و المستقبلة فهو على قسمين: فإما أن يكون المخبر به من الأمور التى تناله الحواس أو تدركه العقول كان أيضا تأويله ما هو فى الخارج من القضية الواقعة كقوله تعالى: وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ «۱»، و قوله تعالى: غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ «۲» و إن كان من الأمور المستقبلة الغيبية التى لا تنالها حواسنا الدنيوية و لا تدرك حقيقتها عقولنا كالأمور المربوطة بيوم القيامة و وقت

(_____ ۱) التوبة- ۴۷. (۲) الروم- ۲ إلى ۴.

الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۸۶ الساعة و حشر الأموات و الجمع و السؤال و الحساب و تطاير الكتب، أو كان مما هو خارج من سنخ الزمان و إدراك العقول كحقيقة صفاته و أفعاله تعالى فتأويلها أيضا نفس حقائقها الخارجية. و الفرق بين هذا القسم أعنى الآيات المبينة لحال صفات اللّه تعالى و أفعاله و ما يلحق بها من أحوال يوم القيامة و نحوها و بين الأقسام الأخر أن الأقسام الأخر يمكن حصول العلم بتأويلها بخلاف هذا القسم، فإنه لا يعلم حقيقة تأويله إلّا اللّه تعالى، نعم يمكن أن يناله الراسخون فى العلم بتعليم اللّه تعالى بعض النيل على قدر ما تسعه عقولهم، و أما حقيقة الأمر الذى هو حق التأويل فهو مما استأثر اللّه سبحانه بعلمه. فهذا هو الذى يتحصل من مذاهبهم فى معنى التأويل، و هى أربعة. و هاهنا أقوال أخر ذكروها هى فى الحقيقة من شعب القول الأول و إن تحاشى القائلون بها عن قبوله. فمن جملتها أن التفسير أعم من التأويل، و أكثر استعماله فى الألفاظ و مفرداتها و أكثر استعمال التأويل فى المعانى و الجمل، و أكثر ما يستعمل التأويل فى الكتب الإلهية، و يستعمل التفسير فيها و فى غيرها. و من جملتها: أن التفسير بيان معنى اللفظ الذى لا يحتمل إلّا وجها واحدا و التأويل تشخيص أحد محتملات اللفظ بالدليل استنباطا. و من جملتها: أن التفسير بيان المعنى المقطوع من اللفظ و التأويل ترجيح أحد المحتملات من المعانى غير المقطوع بها، و هو قريب من سابقه. و من جملتها أن التفسير بيان دليل المراد و التأويل بيان حقيقة المراد. مثاله: قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ «۱» فتفسيره: أن المرصاد مفعال من قولهم: رصد يرصد إذا راقب، و تأويله التحذير عن التهاون بأمر اللّه و الغفلة عنه.

(_____ ۱) الفجر .. ۱۴. الإعجاز و التحدى

فى القرآن الكريم، ص: ۸۷ و من جملتها: أن التفسير بيان المعنى الظاهر من اللفظ و التأويل بيان المعنى المشكل. و من جملتها: أن التفسير يتعلق بالرواية و التأويل يتعلق بالدراية. و من جملتها: أن التفسير يتعلق بالاتباع و السماع و التأويل يتعلق بالاستنباط و النظر. فهذه سبعة أقوال هى فى الحقيقة من شعب القول الأول الذى نقلناه، يرد عليها ما يرد عليه و كيف كان فلا يصح الركون إلى شىء من هذه الأقوال الأربعة و ما ينشعب منها. أما إجمالا: فلأنك قد عرفت: أن المراد بتأويل الآية ليس مفهوما من المفاهيم تدل عليه الآية سواء كان مخالفا لظاهرها أو موافقا، بل هو من قبيل الأمور الخارجية، و لا كل أمر خارجى حتى يكون المصداق الخارجى للخبر تأويلا له، بل أمر خارجى مخصوص نسبته إلى الكلام نسبة الممثل إلى المثل (بفتحتين) و الباطن إلى الظاهر. و أما تفصيلا فيرد على القول الأول: أن أقل ما يلزمه أن يكون بعض الآيات القرآنية لا ينال تأويلها أى تفسيرها أى المراد من مداليلها اللفظية عامة الأفهام و ليس فى القرآن آيات كذلك بل القرآن ناطق بأنه إنما أنزل قرآنا لتناله الأفهام و لا مناص لصاحب هذا القول إلّا أن يختار أن الآيات المتشابهة إنما هى فواتح السور من الحروف المقطعة حيث لا تنال معانيها عامة الأفهام، و يرد عليه: أنه لا دليل عليه، و مجرد كون

التأويل مشتملا على معنى الرجوع و كون التفسير أيضا غير خال عن معنى الرجوع لا- يوجب كون التأويل هو التفسير كما أن الأم مرجع لأولادها و ليست بتأويل لهم، و الرئيس مرجع للمرءوس و ليس بتأويل له. على أن ابتغاء الفتنة عد فى الآية خاصة مستقلة للتشابه و هو يوجد فى غير فواتح السور فإن أكثر الفتن المحدثة فى الإسلام إنما حدثت باتباع علل الأحكام و آيات الصفات و غيرها. و أما القول الثانى فيرد عليه: أن لازمه وجود آيات فى القرآن أريد بها معان يخالفها ظاهرها الذى يوجب الفتنة فى الدين بتنافيه مع المحكمات الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۸۸ و مرجعه إلى أن فى القرآن اختلافا بين الآيات لا يرتفع إلّا بصرف بعضها عن ظواهرها إلى معان لا تفهمها عامة الأفهام، و هذا يبطل الاحتجاج الذى فى قوله تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «۱»، إذ لو كان ارتفاع اختلاف آية مع آية بأن يقال: إنه أريد بإحداهما أو بهما معا غير ما يدل عليه الظاهر بل معنى تأويلى باصطلاحهم لا يعلمه إلّا اللّه سبحانه مثلا لم تنجح حجة الآية، فإن انتفاء الاختلاف بالتأويل باصطلاحهم فى كل مجموع من الكلام و لو كان لغير اللّه أمر ممكن، و لا- دلالة فيه على كونه غير كلام البشر، إذ من الواضح أن كل كلام حتى القطعى الكذب و اللغو يمكن إرجاعه إلى الصدق و الحق بالتأويل و الصرف عن ظاهره، فلا يدل ارتفاع الاختلاف بهذا المعنى عن مجموع كلام على كونه كلام من يتعالى عن اختلاف الأحوال، و تناقض الآراء، و السهو و النسيان و الخطأ و التكامل بمرور الزمان كما هو المعنى بالاحتجاج فى الآية، فالآية بلسان احتجاجها صريحة فى أن القرآن معرض لعامة الأفهام، و مسرح للبحث و التأمل و التدبر، و ليس فيه آية أريد بها معنى يخالف ظاهر الكلام العربى، و كلا أن فيه أحجية و تعمية. و أما القول الثالث فيرد عليه: أن اشتمال الآيات القرآنية على معان مترتبة بعضها فوق بعض و بعضها تحت بعض مما لا ينكره إلّا من حرم نعمة التدبر إلّا أنها جميعا- و خاصة لو قلنا إنها لوازم المعنى- مداليل لفظية مختلفة من حيث الانفهام و ذكاء السامع المتدبر و بلادته، و هذا لا يلائم قوله تعالى فى وصف التأويل: وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، فإن المعارف العالية و المسائل الدقيقة لا- تختلف فيها الأذهان من حيث التقوى و طهارة النفس بل من حيث الحدة و عدمها، و إن كانت التقوى و طهارة النفس معنيين فى فهم المعارف الطاهرة الإلهية لكن ذلك ليس على نحو الدوران و العلية كما هو ظاهر قوله: وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ. و أما القول الرابع فيرد عليه: أنه و إن أصاب فى بعض كلامه لكنه أخطأ فى بعضه الآخر، فإنه و إن أصاب فى القول بأن التأويل لا يختص

(_____ ۱) النساء- ۸۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۸۹ بالمتشابه بل يوجد لجميع القرآن، و أن التأويل ليس من سنخ المدلول اللفظى بل هو أمر خارجى يبتنى عليه الكلام لكنه أخطأ فى عد كل أمر خارجى مرتبط بمضمون الكلام حتى مصاديق الأخبار الحاكية عن الحوادث الماضية و المستقبلة تأويلا للكلام، و فى حصر المتشابه الذى لا يعلم تأويله فى آيات الصفات و آيات القيامة. توضيحه: أن المراد حينئذ من التأويل فى قوله تعالى: وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ ... إلخ ... إما أن يكون تأويل القرآن برجوع ضميره إلى الكتاب فلا يستقيم قوله: وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ... إلخ ... فإن كثيرا من تأويل القرآن و هو تأويلات القصص بل الأحكام أيضا و آيات الأخلاق مما يمكن أن يعلمه غيره تعالى و غير الراسخين فى العلم من الناس حتى الزائغون قلبا على قوله فإن الحوادث التى تدل عليها آيات القصص يتساوى فى إدراكها جميع الناس من غير أن يحرم عنه بعضهم، و كذا الحقائق الخلقية و المصالح التى يوجدها العمل بالأحكام من العبادات و المعاملات و سائر الأمور المشرعة. و إن كان المراد بالتأويل فيه تأويل المتشابه فقط استقام الحصر فى قوله تعالى: وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، و أفاد أن غيره تعالى و غير الراسخين فى العلم مثلا- لا- ينبغى لهم ابتغاء تأويل المتشابه، و هو يؤدى إلى الفتنة و إضلال الناس لكن لا وجه لحصر المتشابه الذى لا يعلم تأويله فى آيات الصفات و القيامة فإن الفتنة و الضلال كما يوجد فى تأويلها يوجد فى تأويل غيرها من آيات الأحكام و القصص و غيرهما كأن يقول القائل (و قد قيل) إن المراد من تشريع الأحكام إحياء الاجتماع الإنسانىّ بإصلاح شأنه بما ينطبق على الصلاح فلو فرض أن صلاح المجتمع فى غير الحكم المشرع، أو أنه لا- ينطبق على صلاح الوقت وجب اتباعه و إلغاء الحكم الدينى المشرع. و كأن يقول القائل (و قد قيل) إن المراد من كرامات الأنبياء المنقولة فى القرآن أمور عادية، و إنما نقل بألفاظ

ظاهرها خلاف العادة لصلاح استمالة قلوب العامة لانجذاب نفوسهم و خضوع قلوبهم لما يتخيلونه خارقا للعادة قاهرا لقوانين الطبيعة، و يوجد فى المذاهب المنشعبة المحدثة فى الإسلام شىء كثير من هذه الأقاويل، و جميعها من التأويل فى القرآن ابتغاء للفتنة بلا الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۹۰ شك، فلا وجه لقصر المتشابه على آيات الصفات و آيات القيامة. إذا عرفت ما مرّ علمت: أن الحق فى تفسير التأويل أنه الحقيقة الواقعية التى تستند إليها البيانات القرآنية من حكم أو موعظة أو حكمة، و أنه موجود لجميع الآيات القرآنية: محكمها و متشابهها، و أنه ليس من قبيل المفاهيم المدلول عليها بالألفاظ بل هى من الأمور العينية المتعالية من أن يحيط بها شبكات الألفاظ، و إنما قيدها اللّه سبحانه بقيد الألفاظ لتقريبها من أذهاننا بعض التقريب فهى كالأمثال تضرب ليقرب بها المقاصد و توضح بحسب ما يناسب فهم السامع كما قال تعالى: وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ «۱» و فى القرآن تصريحات و تلويحات بهذا المعنى. على أنك قد عرفت فيما مرّ من البيان: أن القرآن لم يستعمل لفظ التأويل فى الموارد التى استعملها- و هى ستة عشر موردا على ما عدت- إلّا فى المعنى الذى ذكرناه ...

(_____ ۱) الزخرف- ۲ إلى ۴. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۹۱

الفصل الرابع هل يعلم تأويل القرآن غير اللّه سبحانه

الفصل الرابع هل يعلم تأويل القرآن غير اللّه سبحانه هذه المسألة أيضا من موارد الخلاف الشديد بين المفسرين، و منشؤه الخلاف الواقع بينهم فى تفسير قوله تعالى وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا الآية، و أن الواو هل هو للعطف أو للاستئناف، فذهب بعض القدماء و الشافعية و معظم المفسرين من الشيعة إلى أن الواو للعطف و أن الراسخين فى العلم يعلمون تأويل المتشابه من القرآن، و ذهب معظم القدماء و الحنفية من أهل السنة إلى أنه للاستئناف و أنه لا يعلم تأويل المتشابه إلّا اللّه و هو ممّا استأثر اللّه سبحانه بعلمه، و قد استدلت الطائفة الأولى على مذهبها بوجوه كثيرة، و ببعض الروايات، و الطائفة الثانية بوجوه أخر و عدة من الروايات الواردة فى أن تأويل المتشابهات ممّا استأثر اللّه سبحانه بعلمه و تمادت كل طائفة فى مناقضة صاحبتها و المعارضة مع حججها. و الذى ينبغى أن يتنبه له الباحث فى المقام أن المسألة لم تخل عن الخلط و الاشتباه من أول ما دارت بينهم و وقعت موردا للبحث و التنقير، فاختلط رجوع المتشابه إلى المحكم، و بعبارة أخرى المعنى المراد من المتشابه بتأويل الآية كما ينبئ به ما عنونّا به المسألة و قررنا عليه الخلاف و قول كل من الطرفين آنفا. و لذلك تركنا التعرض لنقل صحيح الطرفين لعدم الجدوى فى إثباتها أو نفيها بعد ابتنائها على الخلط، و أما الروايات فإنها مخالفة لظاهر الكتاب فإن الروايات المثبتة، أعنى الدالة على أن الراسخين فى العلم يعلمون التأويل فإنها أخذت التأويل مرادفا للمعنى المراد من لفظ المتشابه و لا تأويل فى الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۹۲ القرآن بهذا المعنى، كما روى من طرق أهل السنّة: أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دعا لابن عباس فقال: اللهمّ فقهه فى الدين و علمه التأويل، و ما روى من قول ابن عباس: أنا من الراسخين فى العلم و أنا أعلم تأويله، و من قوله: إن المحكمات هى الآيات الناسخة و المتشابهات هى المنسوخة فإن لازم هذه الروايات على ما فهموه أن يكون معنى الآية المحكمة تأويلا للآية المتشابهة و هو الذى أشرنا إليه أن التأويل بهذا المعنى ليس موردا لنظر الآية. و أما الروايات النافية أعنى الدالة على أن غيره لا يعلم تأويل المتشابهات مثل ما روى أن ابن عباس كان يقرأ: و ما يعلم تأويله إلّا اللّه و يقول الراسخون فى العلم آمنا به و كذلك كان يقرأ أبى بن كعب. و ما روى أن ابن مسعود كان يقرأ: و إن تأويله إلّا عند اللّه و الراسخون فى العلم يقولون آمنا به، فهذه لا تصلح لإثبات شىء: أما أولا؛ فلأن هذه القراءات لا حجية فيها، و أما ثانيا: فلأن غاية دلالتها أن الآية لا تدل على علم الراسخين فى العلم بالتأويل و عدم دلالة الآية عليه غير دلالتها على عدمه كما هو المدعى فمن الممكن أن يدل عليه دليل آخر. و مثل ما فى الدر المنثور عن الطبرانى عن أبى مالك الأشعرى أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: لا أخاف على أمتى إلّا ثلاث خصال: أن يكثر لهم المال

فيتحاسدوا فيقتلوا، و أن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغى تأويله و ما يعلم تأويله إلّا اللّه و الراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا و ما يذكر إلّا أولوا الألباب، و أن يكثر علمهم فيضيعونه و لا يبالون به. و هذا الحديث على تقدير دلالته على النفى لا يدل إلّا على نفيه عن مطلق المؤمن لا- عن خصوص الراسخين فى العلم، و لا- ينفع المستدل إلّا الثانى. و مثل الروايات الدالة على وجوب اتباع المحكم و الإيمان بالمتشابه. و عدم دلالتها على النفى ممّا لا يرتاب فيه. و مثل ما فى تفسير الآلوسى عن ابن جرير عن ابن عباس مرفوعا: أنزل القرآن على أربعة أحرف: حلال و حرام لا يعذر أحد بجهالته، و تفسير تفسره العلماء و متشابه لا يعلمه إلّا اللّه، و من ادعى علمه سوى اللّه تعالى فهو كاذب و الحديث مع كونه مرفوعا و معارضا بما نقل عنه من دعوة الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۹۳ الرسول له و ادعائه العلم به لنفسه مخالف لظاهر القرآن: أن التأويل غير المعنى المراد بالمتشابه على ما عرفت فيما مرّ. و الذى ينبغى أن يقال: أن القرآن يدل على جواز العلم بالتأويل لغيره تعالى و أما هذه الآية فلا دلالة لها على ذلك. أما الجهة الثانية فلما مرّ فى البيان السابق: أن الآية بقرينة صدرها و ذيلها و ما تتلوها من الآيات إنما هى فى مقام بيان انقسام الكتاب إلى المحكم و المتشابه، و تفرق الناس فى الأخذ بها فهم بين مائل إلى اتباع المتشابه لزيغ فى قلبه و ثابت على اتباع المحكم و الإيمان بالمتشابه لرسوخ فى علمه، فإنما القصد الأول فى ذكر الراسخين فى العلم بيان حالهم و طريقتهم فى الأخذ بالقرآن و مدحهم فيه قبال ما ذكر من حال الزائغين و طريقتهم و ذمهم، و الزاهد على هذا القدر خارج عن القصد الأول و لا دليل على تشريكهم فى العلم بالتأويل مع ذلك إلّا وجوه غير تامة تقدمت الإشارة إليها، فيبقى الحصر المدلول عليه بقوله تعالى: وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ من غير ناقض ينقضه من عطف و استثناء و غير ذلك. فالذى تدل عليه الآية هو انحصار العلم بالتأويل فيه تعالى و اختصاصه به. لكنه لا ينافى دلالة دليل منفصل يدل على علم غيره تعالى به بإذنه كما فى نظائره مثل العلم بالغيب، قال تعالى: قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ «۱» و قال تعالى: إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ «۲»، و قال تعالى: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ «۳»، فدل جميع ذلك على الحصر ثم قال تعالى: عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً. إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ «۴» فأثبت ذلك لبعض من هو غيره و هو من ارتضى من رسول، و لذلك نظائر فى القرآن. و أما الجهة الأولى- و هى أن القرآن يدل على جواز العلم بتأويله لغيره

(_____ ۱) النمل- ۶۵. (۲) يونس- ۲۰. (۳) الأنعام- ۵۹. (۴) الجن- ۲۶ و ۲۷. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۹۴ تعالى فى الجملة فبيانه: أن الآيات كما عرفت تدل على أن تأويله الآية أمر خارجى نسبته إلى مدلول الآية نسبة الممثل إلى المثل، فهو و إن لم يكن مدلولا للآية بما لها من الدلالة لكنه محكى لها محفوظ فيها نوعا من الحكاية و الحفظ، نظير قولك: «فى الصيف ضيعت اللبن» لمن أراد أمرا قد فوت أسبابه من قبل، فإن المفهوم المدلول عليه بلفظ المثل و هو تضييع المرأة مع ذلك اللبن فى الصيف لا- ينطبق شىء منه على المورد، و هو ممثل لحال المخاطب حافظ له يصوره فى الذهن بصورة مضمنة فى الصورة التى يعطيها الكلام بمدلوله. كذلك أمر التأويل فالحقيقة الخارجية التى توجب تشريع حكم من الأحكام أو بيان معرفة من المعارف الإلهية أو وقوع حادثة هى مضمون قصّة من القصص القرآنية و إن لم تكن أمرا يدل عليه بالمطابقة نفس الأمر و النهى أو البيان أو الواقعة الكذائية إلّا أن الحكم أو البيان أو الحادثة لما كان كل منها ينتشئ منها و يظهر بها فهو أثرها الحاكى لها بنحو من الحكاية و الإشارة كما أن قول السيد لخادمه، اسقنى ينتشئ عن اقتضاء الطبيعة الإنسانية لكمالها، فإن هذه الحقيقة الخارجية هى التى تقتضى حفظ الوجود و البقاء، و هو يقتضى بدل ما يتحلل من البدن، و هو يقتضى الغذاء اللازم و هو يقتضى الرى، و هو يقتضى الأمر بالسقى مثلا، فتأويل قوله: اسقنى هو ما عليه الطبيعة الخارجية الإنسانية من اقتضاء الكمال فى وجوده، و بقائه، و لو تبدلت هذه الحقيقة الخارجية إلى شىء آخر يباين الأول مثلا لتبدل الحكم الذى هو الأمر بالسقى إلى حكم آخر و كذا الفعل الذى يعرف فيفعل أو ينكر فيجتنب فى واحد من المجتمعات الإنسانية على اختلافها الفاحش فى الآداب و الرسوم إنما يرتضع من ثدى الحسن و القبح الذى عندهم و هو يستند إلى مجموعة متحدة متفقة من علل زمانية و مكانية و سوابق عادات و رسوم مرتكزة فى ذهن الفاعل بالوراثة ممن سبقه، و تكرر المشاهدة ممن شاهده من أهل منطقته، فهذه العلة المؤتلفة

الأجزاء هى تأويل فعله أو تركه من غير أن تكون عين فعله أو تركه لكنها محكيّة مضمنة محفوظة بالفعل أو الترك، و لو فرض تبدل المحيط الاجتماعى لتبدل ما أتى به من الفعل أو الترك. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۹۵ فالأمر الذى له التأويل سواء كان حكما أو قصة أو حادثة يتغير بتغير التأويل لا محالة، و لذلك ترى أنه تعالى فى قوله: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ الآية، لما ذكر اتباع أهل الزيغ ما ليس بمراد من المتشابه ابتغاء للفتنة ذكر أنهم بذلك يبتغون تأويله الذى ليس بتأويل له و ليس إلّا لأن التأويل الذى يأخذون به لو كان هو التأويل الحقيقى لكان اتباعهم للمتشابه اتباعا حقا غير مذموم و تبدل الأمر الذى يدل عليه المحكم و هو المراد من المتشابه إلى المعنى غير المراد الذى فهموه من المتشابه و اتبعوه. فقد تبين: أن تأويل القرآن حقائق خارجية تستند إليه آيات القرآن فى معارفها و شرائعها و سائر ما بينته بحيث لو فرض تغير شىء من تلك الحقائق انقلب ما فى الآيات من المضامين. و إذا أجدت التدبر وجدت أن هذا ينطبق تمام الانطباق على قوله تعالى: وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ «۱» فإنه يدل على أن القرآن النازل كان عند اللّه أمرا أعلى و أحكم من أن تناله العقول أو يعرضه التقطع و التفصل لكنه تعالى عناية بعباده جعله كتابا مقررا و ألبسه لباس العربية لعلهم يعقلون ما لا سبيل لهم إلى عقله و معرفته ما دام فى أم الكتاب، و أم الكتاب هذا هو المدلول عليه بقوله: يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ «۲»، و بقوله: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ «۳». و يدل على إجمال مضمون الآية أيضا قوله تعالى: كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ «۴»، فالإحكام كونه عند اللّه بحيث لا ثلمة فيه و لا فصل، و التفصيل هو جعله فصلا فصلا و آية آية و تنزيله على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و يدل على هذه المرتبة الثانية التى تستند إلى الأولى قوله تعالى (_____: ۱) الزخرف- ۲ إلى ۴. (۲) الرعد- ۳۹. (۳) البروج- ۲۱ و ۲۲. (۴) هود- ۱. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۹۶ وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا «۱»، فقد كان القرآن غير مفروق الآيات ثم فرق و نزل تنزيلا- و أوحى نجوما. و ليس المراد بذلك أنه كان مجموع الآيات مرتب السور على الحال الذى هو عليه الآن عندنا كتابا مؤلفا مجموعا بين الدفتين مثلا ثم فرق و أنزل على النبى نجوما ليقرأه على الناس على مكث كما يفرقه المعلم المقرئ منا قطعات ثم يعلمه و يقرأه متعلمه كل يوم قطعة على حسب استعداد ذهنه. و ذلك أن بين إنزال القرآن نجوما على النبى و بين إلقائه قطعة قطعة على المتعلم فرقا بينا و هو دخالة أسباب النزول فى نزول الآية على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لا شىء من ذلك و لا ما يشبهه فى تعلم المتعلم، فالقطعات المختلفة الملقاة إلى المتعلم فى أزمنة مختلفة يمكن أن تجمع و ينضم بعضها إلى بعض فى زمان واحد و لا يمكن أن تجمع أمثال قوله تعالى: فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ «۲» و قوله تعالى: قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ «۳»، و قوله تعالى: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها «۴» و قوله تعالى: خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً «۵»، و نحو ذلك فيلغى سبب النزول و زمانه ثمّ يفرض نزولها فى أول البعثة أو فى آخر زمان حياة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فالمراد بالقرآن فى قوله تعالى: وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ غير القرآن بمعنى الآيات المؤلفة. و بالجملة فالمحصل من الآيات الشريفة أن وراء ما نقرأه و نعقله من القرآن أمرا هو من القرآن بمنزلة الروح من الجسد و المتمثل من المثال و هو الذى يسميه تعالى بالكتاب الحكيم- و هو الذى تعتمد و تتكى عليه معارف القرآن المنزل و مضامينه و ليس من سنخ الألفاظ المفرقة المقطعة و لا- المعانى المدلول عليها بها، و هذا بعينه هو التأويل المذكور فى الآيات المشتملة عليه لانطباق أوصافه و نعوته عليه. و بذلك تظهر حقيقة معنى التأويل، و يظهر (_____ ۱) الإسراء- ۱۰۶. (۲) المائدة- ۱۳. (۳) التوبة- ۱۲۳. (۴) المجادلة- ۱. (۵) التوبة- ۱۰۳. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۹۷ سبب امتناع التأويل عن أن تمسّه الأفهام العادية و النفوس غير المطهرة. ثمّ إنه تعالى قال: لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ «۱»، و لا شبهة فى ظهور الآيات فى أن المطهرين من عباد اللّه هم يمسون القرآن الكريم الذى فى الكتاب المكنون و المحفوظ من التغير، و من التغير تصرف الأذهان بالورود عليه و الصدور منه و ليس هذا المس إلّا نيل الفهم و العلم، و من المعلوم أيضا: أن الكتاب المكنون هذا هو أم الكتاب

المدلول عليه بقوله: يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ و هو المذكور فى قوله: وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ. و هؤلاء قوم نزلت الطهارة فى قلوبهم، و ليس ينزلها إلّا اللّه سبحانه، فإنه تعالى لم يذكرها إلّا كذلك أى منسوبة إلى نفسه كقوله تعالى: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً «۲»، و قوله تعالى: وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ «۳»، و ما فى القرآن شىء من الطهارة المعنوية إلّا منسوبة إلى اللّه أو بإذنه و ليست الطهارة إلّا زوال الرجس من القلب، و ليس القلب من الإنسان إلّا ما يدرك به و يريد به، فطهارة القلب طهارة نفس الإنسان فى اعتقادها و إرادتها و زوال الرجس عن هاتين الجهتين، و يرجع إلى ثبات القلب فيما اعتقده من المعارف الحقة من غير ميلان إلى الشك و نوسان بين الحق و الباطل، و ثباته على لوازم ما علمه من الحق من غير تمايل إلى اتباع الهوى و نقض ميثاق العلم، و هذا هو الرسوخ فى العلم فإن اللّه سبحانه ما وصف الراسخين فى العلم إلّا بأنهم مهديون ثابتون على ما علموا غير زائغة قلوبهم إلى ابتغاء الفتنة فقد ظهر أن هؤلاء المطهرين راسخون فى العلم، هذا. و لكن ينبغى أن لا تشتبه النتيجة التى ينتجها هذا البيان، فإن المقدار الثابت بذلك أن المطهرين يعلمون التأويل، و لازم تطهيرهم أن يكونوا راسخين فى علومهم، لما أن تطهير قلوبهم منسوب إلى اللّه و هو تعالى سبب

(_____ ۱) الواقعة- ۷۹. (۲) الأحزاب- ۳۳.

(۳) المائدة- ۶. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۹۸ غير مغلوب، لا أن الراسخين فى العلم يعلمونه بما أنهم راسخون فى العلم أى إن الرسوخ فى العلم سبب للعلم بالتأويل فإن الآية لا تثبت ذلك، بل ربما لاح من سياقها جهلهم بالتأويل حيث قال تعالى: يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا الآية، و قد وصف اللّه تعالى رجالا من أهل الكتاب برسوخ العلم و مدحهم بذلك، و شكرهم على الإيمان و العمل الصالح فى قوله: لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ «۱» الآية، و لم يثبت مع ذلك كونهم عالمين بتأويل الكتاب. و كذلك إن الآية أعنى قوله تعالى: لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ لم تثبت للمطهرين إلّا مسّ الكتاب فى الجملة، و أما أنهم يعلمون كل التأويل و لا يجهلون شيئا منه و لا فى وقت فهى ساكتة عن ذلك، و لو ثبت لثبت بدليل منفصل (_____ ۱) النساء- ۱۶۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۹۹

الفصل الخامس ما هو السبب فى اشتمال الكتاب على المتشابه؟

الفصل الخامس ما هو السبب فى اشتمال الكتاب على المتشابه؟ و من الاعتراضات التى أوردت على القرآن الكريم الاعتراض باشتماله على المتشابهات و هو أنكم تدعون أن تكاليف الخلق إلى يوم القيامة فيه، و أنه قول فصل يميز بين الحق و الباطل، ثم إنا نراه يتمسك به كل صاحب مذهب من المذاهب المختلفة بين المسلمين لإثبات مذهبه، و ليس ذلك إلى لوقوع التشابه فى آياته، أ فليس أنه لو جعله جليا نقيا عن هذه المتشابهات كان أقرب إلى الغرض المطلوب، و أقطع لمادة الخلاف و الزيغ؟ و أجيب عنه بوجوه من الجواب بعضها ظاهر السخافة كالجواب بأن وجود المتشابهات يوجب صعوبة تحصيل الحق و مشقة البحث و ذلك موجب لمزيد الأجر و الثواب، و كالجواب بأنه لو لم يشتمل إلّا على صريح القول فى مذهب لنفر ذلك سائر أرباب المذاهب فلم ينظروا فيه، لكنه لوجود التشابه فيه أطمعهم فى النظر فيه و كان فى ذلك رجاء أن يظفروا بالحق فيؤمنوا به! و كالجواب بأن اشتماله على المتشابه أوجب الاستعانة بدلالة العقل، و فى ذلك خروج عن ظلمة التقليد و دخول فى ضوء النظر و الاجتهاد! و كالجواب بأن اشتماله على المتشابه أوجب البحث عن طرق التأويلات المختلفة، و فى ذلك فائدة التضلع بالفنون المختلفة كعلم اللغة و الصرف و النحو و أصول الفقه!. فهذه أجوبة سخيفة ظاهرة السخافة بأدنى نظر، و الذى يستحق الإيراد و البحث من الأجوبة وجوه ثلاثة: الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۰۰ الأوّل: أن اشتمال القرآن الكريم على المتشابهات لتمحيص القلوب فى التصديق به، فإنه لو كان كل ما ورد فى الكتاب معقولا واضحا لا شبهة فيه عند أحد لما كان فى الإيمان شىء من معنى الخضوع لأمر اللّه تعالى و التسليم لرسله. و فيه: أن

الخضوع هو نوع انفعال و تأثر من الضعيف فى مقابل القوى و الإنسان إنما يخضع لمن يدرك عظمته أو لما لا يدركه لعظمته و بهوره الإدراك كقدرة اللّه غير المتناهية و عظمته غير المتناهية و سائر صفاته التى إذا واجهها العقل رجع القهقرى لعجزه عن الإحاطة بها، و أما الأمور التى لا ينالها العقل لكنه يغتر و يغادر باعتقاد أنه يدركها فما معنى خضوعه لها؟ كالآيات المتشابهة التى يتشابه أمرها على العقل فيحسب أنه يعقلها و هو لا يعقل. الثانى: أن اشتماله على المتشابه إنما هو لبعث العقل على البحث و التنقير لئلا يموت بإهماله بإلقاء الواضحات التى لا يعمل فيها عامل الفكر، فإن العقل أعز القوى الإنسانية التى يجب تربيتها بتربية الإنسان. و فيه: أن اللّه تعالى أمر الناس بإعمال العقل و الفكر فى الآيات الآفاقية و الأنفسية إجمالا فى موارد من كلامه، و تفصيلا فى موارد أخرى كخلق السموات و الأرض و الجبال و الشجر و الدواب و الإنسان و اختلاف ألسنته و ألوانه، و ندب إلى التعقل و التفكر و السير فى الأرض و النظر فى أحوال الماضين، و حرض على العقل و الفكر، و مدح العلم بأبلغ المدح و فى ذلك غنى عن البحث فى أمور ليس إلّا مزالق للأقدام و مصارع للأفهام. الثالث: أن الأنبياء بعثوا إلى الناس و فيهم العامة و الخاصة، و الذكى و البليد و العالم و الجاهل، و كان من المعانى ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة تكشف عن حقيقته و تشرح كنهه بحيث يفهمه الجميع على السواء، فالحرى فى أمثال هذه المعانى أن تلقى بحيث تفهمها الخاصة و لو بطريق الكناية و التعريض و يؤمر العامة فيها بالتسليم و تفويض الأمر إلى اللّه تعالى. و فيه: أن الكتاب كما يشتمل على المتشابهات كذلك يشتمل على المحكمات التى تبين المتشابهات بالرجوع إليها، و لازم ذلك أن لا تتضمن الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۰۱ المتشابهات أزيد مما تكشف عنه المحكمات، و عند ذلك يبقى السؤال (و هو أنه ما فائدة وجود المتشابهات فى الكتاب و لا حاجة إليها مع وجود المحكمات) على حاله، و منشأ الاشتباه أن المجيب أخذ المعانى نوعين متباينين: معان يفهمها جميع المخاطبين من العامة و الخاصة و هى مداليل المحكمات، و معان سنخها بحيث لا يتلقاها إلّا الخاصة من المعارف العالية و الحكم الدقيقة، فصارت بذلك المتشابهات لا ترجع معانيها إلى المحكمات، و قد مرّ أن ذلك مخالف لمنطق الآيات الدالة على أن القرآن يفسر بعضه بعضا و غير ذلك. و الذى ينبغى أن يقال: أن وجود المتشابه فى القرآن ضرورى ناشئ عن وجود التأويل الموجب لتفسير بعضه بعضا بالمعنى الذى أوضحناه للتأويل فيما مرّ. و يتضح ذلك بعض الاتضاح بإجادة التدبر فى جهات البيان القرآنى و التعليم الإلهى و الأمور التى بنيت عليها معارفه و الغرض الأقصى من ذلك و هى أمور: منها: أن اللّه سبحانه ذكر أن لكتابه تأويلا هو الذى تدور مداره المعارف القرآنية و الأحكام و القوانين و سائر ما يتضمنه التعليم الإلهى، و أن هذا التأويل الذى تستقبله و تتوجه إليه جميع هذه البيانات أمر تقصر عن نيله الأفهام و تسقط دون الارتقاء إليه العقول إلّا نفوس طهرهم اللّه و أزال عنهم الرجس، فإن لهم خاصة أن يمسوه. و هذا غاية ما يريده تعالى من الإنسان المجيب لدعوته فى ناحية العلم أن يهتدى إلى علم كتابه الذى هو تبيان كل شىء و مفتاحه التطهير الإلهى، و قد قال تعالى: ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ «۱»، فجعل الغاية لتشريع الدين هى التطهير الإلهى. و هذا الكمال الإنسانى كسائر الكمالات المندوب إليها لا يظفر

(_____ ۱) المائدة- ۶. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۰۲ بكمالها إلّا أفراد خاصة، و إن كانت الدعوة متعلقة بالجميع متوجهة إلى الكل، فتربية الناس بالتربية الدينية إنما تثمر كمال التطهير فى أفراد خاصة و بعض التطهير فى آخرين، و يختلف ذلك باختلاف درجات الناس، كما أن الإسلام يدعو إلى حق التقوى فى العمل. قال تعالى: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ «۱» و لكن لا يحصل كماله إلّا فى أفراد و فيمن دونهم دون ذلك على طريق الأمثل فالأمثل، كل ذلك لاختلاف الناس فى طبائعهم و أفهامهم، و هكذا جميع الكمالات الاجتماع من حيث التربية و الدعوة، يدعو داعى الاجتماع إلى الدرجة القصوى من كل كمال كالعلم و الصنعة و الثروة و الراحة و غيرها لكن لا ينالها إلّا البعض، و من دونه ما دونها على اختلاف مراتب الاستعدادات. و بالحقيقة أمثال هذه الغايات ينالها المجتمع من غير تخلف دون كل فرد منه. و منها: أن القرآن قطع بأن الطريق الوحيد إلى إيصال الإنسان إلى هذه الغاية الشريفة تعريف نفس الإنسان لنفسه بتربيته فى ناحيتى العلم و العمل: أما فى ناحية العلم فبتعليمه الحقائق المربوطة به من المبدأ و المعاد و ما بينهما من حقائق العالم حتى يعرف نفسه بما ترتبط

به من الواقعيات معرفة حقيقية. و أما فى ناحية العمل فبتحميل قوانين اجتماعية عليه بحيث تصلح شأن حياته الاجتماعية، و لا تشغله عن التخلص إلى عالم العلم و العرفان، ثم بتحميل تكاليف عبادية يوجب العمل بها و المزاولة عليها توجه نفسه، و خلوص قلبه إلى المبدأ و المعاد، و إشرافه على عالم المعنى و الطهارة و التجنب عن قذارة الماديات و ثقلها. و أنت إذا أحسنت التدبر فى قوله تعالى: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ «۲»، و ضممته إلى ما سمعت إجماله فى قوله تعالى: وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ الآية، و إلى قوله تعالى: عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ «۳»، و قوله تعالى: يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا

(_____ ۱) آل عمران- ۱۰۲. (۲) فاطر- ۱۰.

(۳) المائدة- ۱۰۵. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۰۳ الْعِلْمَ دَرَجاتٍ «۱»، و ما يشابهه من الآيات اتضح لك الغرض الإلهى فى تشريع الدين و هداية الإنسان إليه، و السبيل الذى سلكه لذلك فافهم. و يتفرع على هذا البيان نتيجة مهمة: هى أن القوانين الاجتماعية فى الإسلام مقدمة للتكاليف العبادية مقصودة لأجلها، و التكاليف العبادية مقدمة للمعرفة باللّه و بآياته، فأدنى الإخلال أو التحريف أو التغيير فى الأحكام الاجتماعية من الإسلام يوجب فساد العبودية و فساد العبودية يؤدى إلى اختلال أمر المعرفة. و هذه النتيجة- على أنها واضحة التفرع على البيان- تؤيدها التجربة أيضا: فإنك إذا تأملت جريان الأمر فى طروق الفساد فى شئون الدين الإسلامى بين هذه الأمة و أمعنت النظر فيه: من أين شرع و فى أين ختم وجدت أن الفتنة ابتدأت من الاجتماعيات ثم توسطت فى العباديات ثم انتهت إلى رفض المعارف. و قد ذكرناك فيما مرّ: أن الفتنة شرعت باتباع المتشابهات و ابتغاء تأويلها و لم يزل الأمر على ذلك حتى اليوم. و منها: أن الهداية الدينية إنما بنيت على نفى التقليد عن الناس و ركوز العلم بينهم ما استطيع، فإن ذلك هو الموافق لغايتها التى هى المعرفة و كيف لا؟ و لا يوجد بين كتب الوحى كتاب، و لا بين الأديان دين يعظمان من أمر العلم و يحرضان عليه بمثل ما جاء به القرآن و الإسلام!. و هذا المعنى هو الموجب لأن يبيّن الكتاب للإنسان حقائق المعارف أولا، و ارتباط ما شرعه له من الأحكام العملية بتلك الحقائق ثانيا، و بعبارة أخرى أن يفهمه: أنه موجود مخلوق للّه تعالى خلقه بيده و وسط فى خلقه و بقائه ملائكته و سائر خلقه من سماء و أرض و نبات و حيوان و مكان و زمان و ما عداها، و أنه سائر إلى معاده و ميعاده سيرا اضطراريا، و كادح إلى ربه كدحا فملاقيه ثم يجزى جزاء ما عمله، أيما إلى جنة، و أيما إلى نار فهذه طائفة من المعارف.

(_____ ۱) المجادلة- ۱۱. الإعجاز و التحدى

فى القرآن الكريم، ص: ۱۰۴ ثم يفهمه أن الأعمال التى تؤديه إلى سعادة الجنة ما هى، و ما تؤديه إلى شقوة النار ما هى؟ أى يبين له الأحكام العبادية و القوانين الاجتماعية، و هذه طائفة أخرى. ثم يبين له أن هذه الأحكام و القوانين مؤدية إلى السعادة أى يفهمه أن هذه الطائفة الثانية مرتبطة بالطائفة الأولى، و أن تشريعها و جعلها للإنسان إنما هو لمراعاة سعادته لاشتمالها على خير الإنسان فى الدنيا و الآخرة، و هذه طائفة ثالثة. و ظاهر عندك أن الطائفة الثانية بمنزلة المقدمة، و الطائفة الأولى بمنزلة النتيجة، و الطائفة الثالثة بمنزلة الرابط الذى يربط الثانية بالأولى و دلالة الآيات على كل واحدة من هذه الطوائف المذكورة واضحة و لا حاجة إلى إيرادها. و منها: أنه لما كانت عامة الناس لا يتجاوز فهمهم المحسوس و لا يرقى عقلهم إلى ما فوق عالم المادة و الطبيعة، و كان من ارتقى فهمه منهم بالارتياضات العلمية إلى الورود فى إدراك المعانى و كليات القواعد و القوانين يختلف أمره باختلاف الوسائل التى يسرت له الورود فى عالم المعانى و الكليات كان ذلك موجبا لاختلاف الناس فى فهم المعانى الخارجة عن الحس و المحسوس اختلافا شديدا ذا عرض عريض على مراتب مختلفة، و هذا أمر لا ينكره أحد. و لا يمكن إلقاء معنى من المعانى إلى إنسان إلّا من طريق معلوماته الذهنية التى تهيأت عنده فى خلال حياته و عيشته، فإن كان مأنوسا بالحس فمن طريق المحسوسات على قدر ما رقى إليه من مدارج الحس كما يمثل لذة النكاح للصبى بحلاوة الحلواء، و إن كان نائلا للمعانى الكلية فبما نال و على قدر ما نال، و هذا ينال المعانى من البيان الحسى و العقلى معا بخلاف المأنوس بالحس. ثم إن الهداية الدينية لا تختص بطائفة دون طائفة من الناس بل تعم جميع الطوائف و تشمل عامّة الطبقات، و هو ظاهر. و هذا المعنى أعنى اختلاف الأفهام و عموم أمر الهداية مع ما عرفت الإعجاز و التحدى

فى القرآن الكريم، ص: ۱۰۵ من وجود التأويل للقرآن هو الموجب أن يساق البيانات مساق الأمثال و هو أن يتخذ ما يعرفه الإنسان و يعهده ذهنه من المعانى فيبين به ما لا يعرفه لمناسبة ما بينهما نظير توزين المتاع بالمثاقيل و لا مسانخة بينهما فى شكل أو صورة أو حجم أو نوع إلّا ما بينهما من التناسب وزنا. و الآيات القرآنية المذكورة سابقا كقوله تعالى: إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ «۱»، و ما يشابهه من الآيات و إن بينت هذا الأمر بطريق الإشارة و الكناية، لكن القرآن لم يكتف بذلك دون أن بيّنه بما ضربه مثلا فى أمر الحق و الباطل فقال تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَ مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ «۲»، فبين أن حكم المثل جار فى أفعاله تعالى كما هو جار فى أقواله، ففعله تعالى كقوله الحق إنما قصد منهما الحق الذى يحويانه و يصاحب كلا منهما أمور غير مقصودة و لا نافعة تعلوهما و تربوهما لكنها ستزول و تبطل، و يبقى الحق الذى ينفع الناس، و إنما يزول و يزهق بحق آخر هو مثله، و هذا كالآية المتشابهة تتضمن من المعنى حقا مقصودا، و يصاحبه و يعلو عليه بالاستباق إلى الذهن معنى آخر باطل غير مقصود، لكنه سيزول بحق آخر يظهر الحق الأول على الباطل الذى كان يعلوه، ليحق الحق بكلماته و يبطل الباطل و لو كره المجرمون، و الكلام فى انطباق هذا المثل على أفعاله الخارجية المتقررة فى عالم الكون كالكلام فى أقواله عز من قائل. و بالجملة: المتحصل من الآية الشريفة: أن المعارف الحقة الإلهية كالماء الذى أنزله اللّه تعالى من السماء هى فى نفسها ماء فحسب، من غير تقييد بكميّة و لا كيفية، ثم إنها كالسيل السائل فى الأودية تتقدر بأقدار مختلفة من حيث السعة و الضيق، و هذه الأقدار أمور ثابتة كل فى محله كالحال فى أصول المعارف و الأحكام التشريعية و مصالح الأحكام التى (_____ ۱) الزخرف- ۳ و ۴. (۲) الرعد- ۱۷. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۰۶ ذكرنا فيما مرّ أنها روابط تربط الأحكام بالمعارف الحقة و هذا حكمها فى نفسها مع قطع النظر عن البيان اللفظى، و هى فى مسيرها ربما صحبت ما هو كالزبد يظهر ظهورا ثم يسرع فى الزوال و ذلك كالأحكام المنسوخة التى تنسخها النواسخ من الآيات، فإن المنسوخ مقتضى ظاهر طباعه أن يدوم لكن الحكم الناسخ يبطل دوامه و يضع مكانه حكما آخر. هذا بالنظر إلى نفس هذه المعارف مع قطع النظر عن ورودها فى وادى البيان اللفظى. و أما المعارف الحقة من حيث كونها واردة فى ظرف اللفظ و الدلالة فإنها بورودها أودية الدلالات اللفظية تتقدر بأقدارها، تتشكل بأشكال المرادات الكلامية بعد إطلاقها، و هذه أقوال ثابتة من حيث مراد المتكلم بكلامه، إلّا أنها مع ذلك أمثال يمثل بها أصل المعنى المطلق غير المتقدر، ثم إنها بمرورها فى الأذهان المختلفة تحمل معانى غير مقصودة كالزبد فى السيل، لأن الأذهان من جهة ما تخزنه من المرتكزات و المألوفات تتصرف فى المعانى الملقاة إليها، و جلّ هذا التصرف إنما هو فى المعانى غير المألوفة كالمعارف الأصلية، و مصالح الأحكام و ملاكاتها كما مرّ، و أما الأحكام و القوانين فلا تصرف فيها مع قطع النظر عن ملاكاتها فإنها مألوفة، و من هنا يظهر أن المتشابهات إنما هى الآيات من حيث اشتمالها على الملاكات و المعارف، دون متن الأحكام و القوانين الدينية. و منها: أنه تحصل من البيان السابق: أن البيانات اللفظية القرآنية أمثال للمعارف الحقة الإلهية لأن البيان نزل فى هذه الآيات إلى سطح الأفهام العامة التى لا تدرك إلّا الحسيات و لا تنال المعانى الكلية إلّا فى قالب الجسمانيات، و لما استلزم ذلك فى إلقاء المعانى الكلية المجردة عن عوارض الأجسام و الجسمانيات أحد محذورين: فإن الأفهام فى تلقيها المعارف المرادة منها إن جمدت فى مرتبة الحس و المحسوس انقلبت الأمثال بالنسبة إليها حقائق ممثلة و فيه بطلان الحقائق و فوت المرادات و المقاصد و إن لم تجمد و انتقلت إلى المعانى المجردة بتجريد الأمثال عن الخصوصيات غير الدخيلة لم يؤمن من الزيادة و النقيصة. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۰۷ نظير ذلك أنها لو ألقى إلينا المثل السائر: عند الصباح يحمد القوم السرى أو تمثل لنا بقول صخر: أهم بأمر الحزم لا أستطيعه و قد حيل بين العير و النزوان فإنا من جهة سبق عهد الذهن بالقصة أو الأمر الممثل له نجرّد المثل عن الخصوصيات المكتنفة بالكلام كالصباح و القوم و السرى، و نفهم من ذلك أن المراد: أن حسن تأثير عمل و تحسين فعله إنما يظهر إذا فرغ منه و بدا أثره و أما و هو

ما دام الإنسان مشتغلا به محسا تعب فعله فلا يقدر قدره، و يظهر ذلك تجريد ما تمثل به من الشعر، و أما إذا لم نعهد الممثل و جمدنا على الشعر أو المثل خفى عنا الممثل و عاد المثل خبرا من الأخبار، و لو لم نجمد و انتقلنا إجمالا إلى أنه مثل لم يمكنا تشخيص المقدار الذى يجب طرحه بالتجريد و ما يجب حفظه للفهم و هو ظاهر. و لا مخلص عن هذين المحذورين إلّا بتفريق المعانى الممثل لها إلى أمثال مختلفة و تقليبها فى قوالب متنوعة حتى يفسر بعضها بعضا، و يوضح بعضها أمر بعض، فيعلم بالتدافع الذى بينها أولا: أن البيانات أمثال و لها فى ما وراءها حقائق ممثلة، و ليست مقاصدها و مراداتها مقصورة على اللفظ المأخوذ من مرتبة الحس و المحسوس و ثانيا: بعد العلم بأنها أمثال: يعلم بذلك المقدار الذى يجب طرحه من الخصوصيات المكتنفة بالكلام، و ما يجب حفظه منها للحصول على المرام، و إنما يحصل ذلك بأن هذا يتضمن نفى بعض الخصوصيات الموجودة فى ذلك، و ذاك نفى بعض ما فى هذا. و إيضاح المقاصد المبهمة و المطالب الدقيقة بإيراد القصص المتعددة و الأمثال و الأمثلة الكثيرة المتنوعة أمر دائر فى جميع الألسنة و اللغات من غير اختصاص بقوم دون قوم، و لغة دون لغة، و ليس ذلك إلّا لأن الإنسان يشعر بقريحة البيان مساس حاجته إلى نفى الخصوصيات الموهمة لخلاف المراد فى القصة الواحدة أو المثل الواحد بالخصوصيات النافية الموجودة فى قصة أخرى مناسبة أو مثل آخر مناسب. فقد تبين أن من الواجب أن يشتمل القرآن الكريم على الآيات المتشابهة و أن يرفع التشابه الواقع فى آية بالإحكام الواقع فى آية أخرى، الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۰۸ و اندفع بذلك الإشكال باشتمال القرآن على المتشابهات لكونها مخلة لغرض الهداية و البيان. و قد ظهر من جميع ما تقدم من الأبحاث على طولها أمور: الأول: أن الآيات القرآنية تنقسم إلى قسمين: محكم و متشابه، و ذلك من جهة اشتمال الآية وحدها على مدلول متشابه و عدم اشتمالها. الثانى: أن لجميع القرآن محكمه و متشابهه تأويلا، و أن التأويل ليس من قبيل المفاهيم اللفظية بل من الأمور الخارجية، نسبته إلى المعارف و المقاصد المبينة نسبة الممثل إلى المثال، و أن جميع المعارف القرآنية أمثال مضروبة للتأويل الذى عند اللّه. الثالث: أن التأويل يمكن أن يعلمه المطهرون و هم راسخون فى العلم. الرابع: أن البيانات القرآنية أمثال مضروبة لمعارفها و مقاصدها، و هذا المعنى غير ما ذكرناه فى الأمر الثانى من كون معارفه أمثالا و قد أوضحناه فيما مرّ. الخامس: أن من الواجب أن يشتمل القرآن على المتشابهات، كما أن من الواجب أن يشتمل على المحكمات. السادس: أن المحكمات أم الكتاب إليها ترجع المتشابهات رجوع بيان. السابع: أن الإحكام و التشابه و صفان يقبلان الإضافة و الاختلاف بالجهات بمعنى أن آية ما يمكن أن تكون محكمة من جهة، و متشابهة من جهة أخرى فتكون محكمة بالإضافة إلى آية و متشابهة بالإضافة إلى أخرى، و لا مصداق للمتشابه على الإطلاق فى القرآن، و لا مانع من وجود محكم على الإطلاق. الثامن: أن من الواجب أن يفسر بعض القرآن بعضا. التاسع: أن للقرآن مراتب مختلفة من المعنى، مترتبة طولا من غير أن يكون الجميع فى عرض واحد فيلزم استعمال اللفظ فى أكثر من معنى الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۰۹ واحد، أو مثل عموم المجاز، و لا هى من قبيل اللوازم المتعددة لملزوم واحد، بل هى معان مطابقية يدل على كل واحد منها اللفظ بالمطابقة بحسب مراتب الأفهام. و لتوضيح ذلك نقول: قال اللّه تبارك و تعالى: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ «۱»، فأنبأ أن للتقوى الذى هو لانتهاء عما نهى اللّه عنه و الائتمار بما أمر اللّه به مرتبة هى حق التقوى، و يعلم بذلك أن هناك من التقوى ما هو دون هذه المرتبة الحقة، فللتقوى الذى هو بوجه العمل الصالح مراتب و درجات بعضها فوق بعض. و قال أيضا: أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ. هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ «۲» فبين أن للعمل مطلقا سواء كان صالحا أو طالحا درجات و مراتب، و الدليل على أن المراد بها درجات العمل قوله: وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ. و نظير الآية قوله تعالى: وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ «۳» و قوله تعالى: وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ «۴» و الآيات فى هذا المعنى كثيرة، و فيها ما يدل على أن درجات الجنة و دركات النار بحسب مراتب الأعمال و درجاتها. و من المعلوم أن العمل من أى نوع كان هو من رشحات العلم يترشح من اعتقاد قلبى يناسبه، و قد استدل تعالى على كفر اليهود و على فساد ضمير المشركين و على نفاق المنافقين من المسلمين و على إيمان عدة من الأنبياء و المؤمنين بأعمالهم و أفعالهم فى آيات كثيرة جدا يطول ذكرها، فالعمل

كيف كان يلازم ما يناسبه من العلم و يدل عليه. و بالعكس يستلزم كل نوع من العمل ما يناسبه من العلم و يحصله و يركزه فى النفس كما قال تعالى: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ

(١) آل عمران- ١٠٢. (٢) آل عمران- ١٦٢ و ١٦٣. (٣) الأحقاف- ١٩. (۴) الأنعام- ١٣٢. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ١١٠ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ «١»، و قال تعالى: وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ «٢»، و قال أيضا: ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ «٣»، و قال: فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ «۴»، و الآيات فى هذا المعنى أيضا كثيرة تدل الجميع على أن العمل صالحا كان أو طالحا يولد من أقسام المعارف و الجهالات (و هى العلوم المخالفة للحق) ما يناسبه. و قال تعالى- و هو كالكلمة الجامعة فى العمل الصالح و العلم النافع-: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ «۵»، فبين أن شأن الكلم الطيب و هو الاعتقاد الحق أن يصعد إلى اللّه تعالى و يقرب صاحبه منه، و شأن العمل الصالح أن يرفع هذا العلم و الاعتقاد. و من المعلوم أن ارتفاع العلم فى صعوده إنما هو بخلوصه من الشك و الريب و كمال توجه النفس إليه و عدم تقسم القلب فيه و فى غيره (و هو مطلق الشرك) فكلما كمل خلوصه من الشك و الخطرات اشتد صعوده و ارتفاعه. و لفظ الآية لا يخلو عن دلالة على ذلك، فإنها عبرت فى الكلم الطيب بالصعود و وصفت العمل بالرفع، و الصعود يقابل النزول كما أن الرفع يقابل الوضع، و هما أعنى الصعود و الارتفاع وصفان يتصف بهما المتحرك من السفل إلى العلوم بنسبته إلى الجانبين فهو صاعد بالنظر إلى قصده العلو و اقترابه منه، و مرتفع من جهة انفصاله من السفل و ابتعاده منه، فالعمل يبعد الإنسان و يفصله من الدنيا و الإخلاد إلى الأرض بصرف نفسه عن التعلق بزخارفها الشاغلة و التشتت و التفرق بهذه المعلومات الفانية غير الباقية و كلما زاد الرفع و الارتفاع زاد صعود الكلم الطيب، و خلصت المعرفة عن شوائب الأوهام و قذارات الشكوك، و من المعلوم أيضا كما مرّ: أن العمل الصالح ذو مراتب و درجات فلكل درجة من العمل الصالح رفع الكلم الطيب و توليد

(١) العنكبوت- ۶۹. (٢) الحجر- ٩٩. (٣) الروم- ١٠. (۴) البراءة- ٧٧. (۵) فاطر- ١٠. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ١١١ العلوم و المعارف الحقة الإلهية على ما يناسب حالها. و الكلام فى العمل الطالح و وضعه الإنسان نظير الكلام فى العمل الصالح و رفعه. فظهر أن للناس بحسب مراتب قربهم و بعدهم منه تعالى مراتب مختلفة من العمل و العلم، و لازمه أن يكون ما يتلقاه أهل واحدة من المراتب و الدرجات غير ما يتلقاه أهل المرتبة و الدرجة الأخرى التى فوق هذه أو تحتها، فقد تبين أن للقرآن معان مختلفة مترتبة. و قد ذكر اللّه سبحانه أصنافا من عباده، و خص كل صنف بنوع من العلم و المعرفة لا يوجد فى الصنف الآخر كالمخلصين و خص بهم العلم بأوصاف ربهم حق العلم، قال تعالى: سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ «١» و خص بهم أشياء أخر من المعرفة و العلم سيجيء بيانها إن شاء اللّه تعالى، و كالموقنين و خص بهم مشاهدة ملكوت السموات و الأرض، قال تعالى: وَ كَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ «٢» و كالمنيبين و خص بهم التذكر، قال تعالى: وَ ما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ «٣» و كالعالمين و خص بهم عقل أمثال القرآن، قال تعالى: وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ «۴»، و كأنهم أولو الألباب و المتدبرون لقوله تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها «۵»، و لقوله تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «۶»، فإن مؤدى الآيات الثلاث يرجع إلى معنى واحد و هو العلم بمتشابه القرآن و رده إلى محكمه، و كالمطهرين خصّهم اللّه بعلم تأويل الكتاب، قال تعالى: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ. لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ «٧»، و كالأولياء و هم أهل الوله و المحبة للّه و خص بهم أنهم لا

(١) الصافات- ١٥٩ و ١٦٠. (٢) الأنعام- ٧٥. (٣) المؤمن- ١٣. (۴) العنكبوت- ۴٣. (۵) محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- ٢۴. (۶) النساء- ٨٢. (٧) الواقعة- ٧٧ إلى ٧٩. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ١١٢ يلتفتون إلى شيء إلّا اللّه سبحانه و لذلك لا

يخافون شيئا و لا يحزنون لشيء، قال تعالى: أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ «۱»، و كالمقربين و المجتبين و الصديقين و الصالحين و المؤمنين و لكل منهم خواص من العلم و الإدراك يختصون بها، سنبحث عنها فى المحالّ المناسبة لها. و نظير هذه المقامات الحسنة مقامات سوء فى مقابلها، و لها خواص رديئة فى باب العلم و المعرفة، و لها أصحاب كالكافرين و المنافقين و الفاسقين و الظالمين و غيرهم، و لهم أنصباء من سوء الفهم و رداءة الإدراك لآيات اللّه و معارفه الحقة، طوينا ذكرها إيثارا للاختصار، و سنتعرض لها فى خلال أبحاث هذا الكتاب إن شاء اللّه. العاشر: أن للقرآن اتساعا من حيث انطباقه على المصاديق و بيان حالها فالآية منه لا تختص بمورد نزولها بل تجرى فى كل مورد يتحد مع مورد النزول ملاكا كالأمثال التى لا تختص بمواردها الأول، بل تتعداها إلى ما يناسبها و هذا المعنى هو المسمى بجرى القرآن ...

(۱) يونس- ۶۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۱۳

الفصل السادس المحكم و المتشابه فى ضوء الروايات

الفصل السادس المحكم و المتشابه فى ضوء الروايات فى تفسير العياشى: سئل أبو عبد اللّه عليه السّلام عن المحكم و المتشابه قال: المحكم ما يعمل به و المتشابه ما اشتبه على جاهله. أقول: و فيه تلويح إلى أن المتشابه مما يمكن العلم به. و فيه أيضا: عنه عليه السّلام أن القرآن محكم و متشابه: فأما المحكم فتؤمن به و تعمل به و تدين، و أما المتشابه فتؤمن به و لا تعمل به، و هو قول اللّه عز و جل: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا «۱». و الراسخون فى العلم هم آل محمد. أقول: و سيجيء كلام فى معنى قوله عليه السّلام: و الراسخون فى العلم هم آل محمد. و فيه أيضا عن مسعدة بن صدقة قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام عن الناسخ و المنسوخ و المحكم و المتشابه قال: الناسخ الثابت المعمول به، و المنسوخ ما قد كان يعمل به ثم جاء ما نسخه، و المتشابه ما اشتبه على جاهله. قال و فى رواية: الناسخ الثابت، و المنسوخ ما مضى، و المحكم ما يعمل به، و المتشابه ما يشبه بعضه بعضا.

(۱) آل عمران- ۷. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۱۴ و فى الكافى عن الباقر عليه السّلام فى حديث قال: فالمنسوخات من المتشابهات. و فى العيون عن الرضا عليه السّلام: من رد متشابه القرآن إلى محكمه هدى إلى صراط مستقيم. ثم قال: إن فى أخبارنا متشابها كمتشابه القرآن فردوا متشابهها إلى محكمها، و لا تتبعوا متشابهها فتضلوا. أقول: الأخبار كما ترى متقاربة فى تفسير المتشابه، و هى تؤيد ما ذكرناه فى البيان السابق: أن التشابه يقبل الارتفاع، و أنه إنما يرتفع بتفسير المحكم له. و أما كون المنسوخات من المتشابهات فهو كذلك كما تقدم و وجه تشابهها ما يظهر منها من استمرار الحكم و بقائه، و يفسره الناسخ ببيان أن استمراره مقطوع. و أما ما ذكره عليه السّلام فى خبر العيون: إن فى أخبارنا متشابها كمتشابه القرآن و محكما كمحكم القرآن، فقد وردت فى هذا المعنى عنهم عليهم السّلام روايات مستفيضة، و الاعتبار يساعده فإن الأخبار لا تشتمل إلّا على ما اشتمل عليه القرآن الشريف، و لا تبين إلّا ما تعرض له و قد عرفت فيما مرّ: أن التشابه من أوصاف المعنى الذى يدل عليه اللفظ و هو كونه بحيث يقبل الانطباق على المقصود و على غيره، لا من أوصاف اللفظ من حيث دلالته على المعنى نظير الغرابة و الإجمال، و لا من أوصاف الأعم من اللفظ و المعنى. و بعبارة أخرى: إنما عرض التشابه لما عرض عليه من الآيات لكون بياناتها جارية مجرى الأمثال بالنسبة إلى المعارف الحقة الإلهية، و هذا المعنى بعينه موجود فى الأخبار ففيها متشابه و محكم كما فى القرآن، و قد ورد عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال: إنا معاشر الأنبياء نكلم الناس على قدر عقولهم. و فى تفسير العياشى عن جعفر بن محمد، عن أبيه عليهم السّلام: أن رجلا قال لأمير المؤمنين عليه السّلام: هل تصف لنا ربنا نزداد له حبا و معرفة. فغضب و خطب الناس فقال فيما قال: عليك يا عبد اللّه بما دلك عليه القرآن من صفته، و

تقدمك فيه الرسول من معرفته، و استضئ من نور هدايته فإنما هى نعمة و حكمة أوتيتها، فخذ ما أوتيت و كن من الشاكرين و ما كلفك الشيطان عليه مما ليس عليك فى الكتاب فرضه، و لا فى سنّة الرسول و أئمة الهدى الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۱۵ أمره فكل علمه إلى اللّه و لا تقدر عظمة اللّه و اعلم يا عبد اللّه: أن الراسخين فى العلم الذين أغناهم اللّه عن الاقتحام فى السدد المضروبة دون الغيوب فلزموا الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فقالوا آمنا به كل من عند ربنا، و قد مدح اللّه اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما، و سمى تركهم التعمّق فيما لم يكلفهم البحث عنه منهم رسوخا فاقتصر على ذلك و لا تقدر عظمة اللّه على قدر عقلك فتكون من الهالكين. أقول: قوله عليه السّلام: و اعلم يا عبد اللّه أن الراسخين فى العلم ... إلخ. ظاهر فى أنه عليه السّلام أخذ الواو فى قوله تعالى: وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ، للاستئناف دون العطف كما استظهرناه من الآية، و مقتضى ذلك أن ظهور الآية لا يساعد على كون الراسخين فى العلم عالمين بتأويله، لا أنه يساعد على عدم إمكان علمهم به، فلا ينافى وجود بيان آخر يدل عليه كما تقدم بيانه و هو ظاهر بعض الأخبار عن أئمة أهل البيت كما سيأتى. و قوله عليه السّلام: الذين أغناهم اللّه عن الاقتحام فى السدد المضروبة دون الغيوب، خبر أن و الكلام ظاهر فى تحضيض المخاطب و ترغيبه أن يلزم طريقة الراسخين فى العلم بالاعتراف بالجهل فيما جهله فيكون منهم، و هذا دليل على تفسيره عليه السّلام الراسخين فى العلم بمطلق من لزم ما علمه و لم يتعد إلى ما جهله و المراد بالغيوب المحجوبة بالسدد: المعانى المرادة بالمتشابهات الخفية عن الأفهام العامة و لذا أردفه بقوله ثانيا: فلزموا الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره، و لم يقل بجملة ما جهلوا تأويله فافهم. و فى الكافى عن الصادق عليه السّلام: نحن الراسخون فى العلم و نحن نعلم تأويله. أقول: و الرواية لا تخلو عن ظهور فى كون قوله تعالى وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ معطوفا على المستثنى فى قوله: وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ لكن هذا الظهور يرتفع بما مرّ من البيان و ما تقدم من الرواية، و لا يبعد كل البعد أن يكون المراد بالتأويل هو المعنى المراد بالمتشابه فإن هذا المعنى من التأويل المساوق لتفسير المتشابه كان شائعا فى الصدر الأول بين الناس. و أما قوله عليه السّلام: نحن الراسخون فى العلم، و قد تقدم فى رواية للعياشى عن الصادق عليه السّلام قوله: و الراسخون فى العلم، هم آل محمد، الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۱۶ و هذه الجملة مروية فى روايات أخر أيضا فجميع ذلك من باب الجرى و الانطباق كما يشهد بذلك ما تقدم و يأتى من الروايات. و فى الكافى أيضا عن هشام بن الحكم قال: قال لى أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السّلام إلى أن قال: يا هشام أن اللّه حكى عن قوم صالحين أنهم قالوا: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، علموا أن القلوب تزيغ و تعود إلى عماها و رداها، إنه لم يخف اللّه من لم يعقل عن اللّه، و من لم يعقل عن اللّه لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة ينظرها و يجد حقيقتها فى قلبه، و لا يكون أحد كذلك إلّا من كان قوله لفعله مصدقا، و سره لعلانيته موافقا، لأن اللّه عزّ اسمه لم يدل على الباطن الخفى من العقل إلّا بظاهر منه و ناطق عنه. أقول: قوله عليه السّلام: لم يخف اللّه من لم يعقل عن اللّه، فى معنى قوله تعالى: إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ و قوله عليه السّلام: و من لم يعقل عن اللّه .... إلخ أحسن بيان لمعنى الرسوخ فى العلم لأن الأمر ما لم يعقل حق التعقل لم ينسد طرق الاحتمالات فيه، و لم يزل القلب مضطربا فى الإذعان به، و إذا تمّ التعقل و عقد القلب عليه لم يخالفه باتباع ما يخالفه من الهوى فكان ما فى قلبه هو الظاهر فى جوارحه و كان ما يقوله هو الذى يفعله، و قوله: و لا يكون أحد كذلك ... إلخ بيان لعلامة الرسوخ فى العلم. و فى الدر المنثور أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و الطبرانى عن أنس و أبى أمامة و وائلة بن أسقف و أبى الدرداء أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سئل عن الراسخين فى العلم فقال: من برت يمينه و صدق لسانه و استقام قلبه، و من عف بطنه و فرجه فذلك من الراسخين فى العلم. أقول: و يمكن توجيه الرواية بما يرجع إلى معنى الحديث السابق. و فى الكافى عن الباقر عليه السّلام: أن الراسخين فى العلم من لا يختلف فى علمه. أقول: و هو منطبق على الآية، فإن الراسخين فى العلم قوبل به فيها الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۱۷ قوله: الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ، فيكون رسوخ العلم عدم اختلاف العالم و ارتيابه. و فى الدر المنثور أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و الترمذى و ابن جرير و الطبرانى و ابن مردويه عن أم سلمة: أن رسول اللّه كان يكثر فى دعائه أن يقول: اللهم مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك. قلت: يا رسول اللّه و

إن القلوب لتتقلب؟ قال نعم ما خلق اللّه من بشر من بنى آدم إلّا و قلبه بين إصبعين من أصابع اللّه فإن شاء أقامه، و إن شاء أزاغه، الحديث. أقول: و روى هذا المعنى بطرق عديدة عن عدة من الصحابة كجابر و نواس بن شمعان و عبد اللّه بن عمر و أبى هريرة، و المشهور فى هذا الباب ما فى حديث نواس: قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن. و قد روى اللفظة (فيما أظن) الشريف الرضى فى المجازات النبوية. و روى عن على عليه السّلام أنه قيل له: هل عندكم شىء من الوحى؟ قال لا و الذى فلق الحبة و برأ النسمة إلّا أن يعطى اللّه عبدا فهما فى كتابه. أقول: و هو من غرر الأحاديث، و أقل ما يدل عليه: أن ما نقل من أعاجيب المعارف الصادرة عن مقامه العلمى الذى يدهش العقول مأخوذ من القرآن الكريم. و فى الكافى عن الصادق عن أبيه عن آبائه عليهم السّلام قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أيها الناس إنكم فى دار هدنة، و أنتم على ظهر سفر، و السير بكم سريع، و قد رأيتم الليل و النهار و الشمس و القمر يبليان كل جديد و يقربان كل بعيد، و يأتيان بكل موعود، فأعدوا الجهاز لبعد المجاز، قال: فقام المقداد ابن الأسود فقال: يا رسول اللّه و ما دار الهدنة؟ فقال: دار بلاغ و انقطاع، فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع، و ماحل مصدق، و من جعله أمامه قاده إلى الجنة، و من جعله خلفه ساقه إلى النار، و هو الدليل يدل على خير سبيل، و هو كتاب فيه تفصيل و بيان و تحصيل، و هو الفصل ليس بالهزل، و له ظهر و بطن، فظاهره حكم و باطنه علم، ظاهره أنيق و باطنه عميق، له تخوم و على تخومه تخوم، لا- تحصى عجائبه، و لا- تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى و منار الحكمة، و دليل الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۱۸ على المعرفة لمن عرف الصفة، فليجل جال بصره، و ليبلغ الصفة نظره، ينج من عطب، و يخلص من نشب، فإن التفكر حياة قلب البصير، كما يمشى المستنير فى الظلمات، فعليكم بحسن التخلص، و قلة التربص. أقول: و رواه العياشى فى تفسيره إلى قوله: فليجل جال. و فى الكافى و تفسير العياشى أيضا عن الصادق عليه السّلام قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم القرآن هدى من الضلالة، و تبيان من العمى و استقالة من العثرة و نور من الظلمة و ضياء من الأحداث، و عصمة من الهلكة، و رشد من الغواية و بيان من الفتن، و بلاغ من الدنيا إلى الآخرة، و فيه كمال دينكم، و ما عدل أحد من القرآن إلّا إلى النار. أقول: و الروايات فى هذا المساق كثيرة عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمة من أهل بيته عليهم السّلام. و فى تفسير العياشى عن الفضيل بن يسار قال: سألت أبا جعفر عليه السّلام عن هذه الرواية: ما فى القرآن آية إلّا و لها ظهر و بطن، و ما فيه حرف إلّا و له حد و لكل حد مطلع، ما يعنى بقوله: ظهر و بطن؟ قال: ظهره تنزيله و بطنه تأويله، منه ما مضى و منه ما لم يكن بعد، يجرى كما يجرى الشمس و القمر، كلما جاء منه شىء وقع، قال اللّه: وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، نحن نعلمه. أقول: الرواية المنقولة فى ضمن الرواية هى ما روته الجماعة عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بألفاظ مختلفة و إن كان المعنى واحدا كما فى تفسير الصافى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن للقرآن ظهرا و بطنا و حدا و مطلعا. و فيه عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا: إن للقرآن ظهرا و بطنا و لبطنه بطنا إلى سبعة أبطن. و قوله عليه السّلام: منه ما مضى و منه ما يأتى، ظاهره رجوع الضمير إلى القرآن باعتبار اشتماله على التنزيل و التأويل فقوله: يجرى كما يجرى الشمس و القمر، يجرى فيهما معا، فينطبق فى التنزيل على الجرى الذى اصطلح عليه الأخبار فى انطباق الكلام بمعناه على المصداق كانطباق قوله: الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۱۹ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ «۱»، على كل طائفة من المؤمنين الموجودين فى الأعصار المتأخرة عن زمان نزول الآية، و هذا نوع من الانطباق، و كانطباق آيات الجهاد على جهاد النفس، و انطباق آيات المنافقين على الفاسقين من المؤمنين، و هذا نوع آخر من الانطباق أدق من الأول، و كانطباقها و انطباق آيات المذنبين على أهل المراقبة و الذكر و الحضور فى تقصيرهم و مساهلتهم فى ذكر اللّه تعالى، و هذا نوع آخر أدق ممّا تقدمه، و كانطباقها عليهم فى قصورهم الذاتى عن أداء حق الربوبية، و هذا نوع آخر أدق من الجميع. و من هنا يظهر أولا: أن للقرآن مراتب من المعانى المرادة بحسب مراتب أهله و مقاماتهم، و قد صور الباحثون عن مقامات الإيمان و الولاية من معانيه ما هو أدق مما ذكرناه. و ثانيا: أن الظهر و البطن أمران نسبيان، فكل ظهر بطن بالنسبة إلى ظهره و بالعكس كما يظهر من الرواية التالية: و فى تفسير العياشى عن جابر قال: سألت أبا جعفر عليه السّلام عن شىء من تفسير

القرآن فأجابنى، ثم سألته ثانيـة فأجابنى بجواب آخر، فقلت: جعلت فداك كنت أجبت فى المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم! فقال: يا جابر إن للقرآن بطنا و للبطن بطن، و ظهرا و للظهر ظهر، يا جابر و ليس شـىء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إن الآية تكون أولها فى شـىء و أوسطها فى شـىء و آخرها فى شـىء و هو كلام متصل ينصـرف على وجوه. و فيه أيضا عنه عليه السّلام فى حديث قال: و لو أن الآية إذا نزلت فى قوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية لما بقى من القرآن شىء و لكن القرآن يجرى أوله على آخره ما دامت السـموات و الأرض و لكل قوم آية يتلونها هم منها من خير أو شـر. و فى المعانى عن حمران بن أعين قال: سألت أبا جعفر عليه السّـلام عـن ظهر (_____ ۱) التوبـة- ۱۲۰.

الإعجـاز و التحـدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۲۰ القرآن و بطنه فقـال: ظهره الـذين نزل فيهم القرآن، و بطنه الـذين عملوا بأعمـالهم، يجرى فيهم ما نزل فى أولئك. و فى تفسير الصافى عن على عليه السّـلام: ما من آية إلّا و لها أربعة معان: ظاهر و باطن و حد و مطلع، فالظـاهر التلاـوة، و البـاطن الفهم، و الحـد هو أحكـام الحلال و الحرام، و المطلع هو مراد اللّه من العبـد بها. أقول: المراد بالتلاوة ظاهر مدلول اللفظ بدليل أنه عليه السّلام عده من المعانى، فالمراد بالفهم فى تفسيره الباطن ما هو فى باطن الظاهر من المعنى و المراد بقوله: هو أحكام الحلال و الحرام ظاهر المعارف المتلقاة من القرآن فى أوائل المراتب أو أواسـطها فى مقابل المطلع الـذى هو المرتبة العليا، أو الحد و المطلع نسبيان كما أن الظاهر و الباطن نسبيان كما عرفت فيما تقدم فكل مرتبة عليا هى مطلع بالنسـبة إلى السـفلى. و المطلع إمـا بضم الميم و تشديـد الطاء و فتـح اللام اسم مكان من الاطلاع، أو بفتـح الميم و اللام و سـكون الطاء اسم مكان من الطلوع، و هو مراد اللّه من العبـد بها كما ذكره عليه السّـلام. و قـد وردت هـذه الأمور الأربعة فى النبوى المعروف هكذا: إن القرآن أنزل على سـبعة أحرف، لكل آية منها ظهر و بطن و لكل حد مطلع. و فى رواية: و لكل حد و مطلع. و معنى قوله صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: و لكل حـد مطلع على ما فى إحـدى الروايتين: أن لكل واحـد من الظهر و البطن الـذى هو حد مطلع يشـرف عليه، هذا هو الظاهر و يمكن أن يرجع إليه مـا فى الروايـة الأـخرى: و لكـل حـد و مطلع بـأن يكون المعنى: و لكل منهما حـد هو نفسه و مطلع و هو ما ينتهى إليه الحد فيشـرف على التأويل لكن هـذا لا يلائم ظاهرا ما فى روايـة على عليه السّـلام: ما من آيـة إلّا و لها أربعـة معان «إلخ» إلّا أن يراد أن لها أربعـة اعتبـارات من المعنى و إن كـان ربمـا انطبق بعضـها على بعض. و على هـذا فالمتحصـل من معـانى الأمور الأربعـة: أن الظهر هو المعنى الظاهر البادى من الآيـة، و الباطن هو الـذى تحت الظاهر سواء كان واحدا أو كثيرا، قريبا منه أو بعيدا بينهما واسـطة، و الحد هو نفس المعنى سواء كـان الإعجاز و التحـدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۲۱ ظهرا أو بطنا و المطلع هو المعنى الـذى طلع منه الحـد و هو بطنه متصـلا به فافهم. و فى الحديث المروى من طرق الفريقين عن النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: أنزل القرآن على سبعة أحرف. أقول: و الحـديث و إن كان مرويا باختلاف ما فى لفظه، لكن معناها مروى مسـتفيضا و الروايات متقاربة معنى، روتها العامة و الخاصة. و قـد اختلف فى معنى الحـديث اختلافا شديـدا ربما أنهى إلى أربعين قولا، و الـذى يهون الخطب أن فى نفس الأخبار تفسيرا لهـذه السـبعة أحرف، و عليه التعويـل. ففى بعض الأخبـار: نزل القرآن على سـبعة أحرف أمر و زجر و ترغيب و ترهيب و جـدل و قصـص و مثل، و فى بعضـها: زجر و أمر و حلال و حرام و محكم و متشابه و أمثال. و عن على عليه السّلام أن اللّه أنزل القرآن على سبعة أقسام، كل منها كاف شاف، و هى أمر و زجر و ترغيب و ترهيب و جدل و مثل و قصـص. فالمتعين حمل السـبعة أحرف على أقسام الخطاب و أنواع البيان و هى سـبعة على وحدتها فى الدعوة إلى اللّه و إلى صـراطه المسـتقيم، و يمكن أن يسـتفاد من هذه الرواية حصر أصول المعـــارف الإلهيـــة فى الأمثـــال فـــإن بقيـــة الســـبعة لاـــ تلائمهـــا إلّـــا بنـــوع مـــن العنايـــة على مـــا لاـــ يخفى «۱».

(_____ ۱) راجع المبحث فى الميزان المجلد ۳ ص ۳۷. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۲۲

التفسير حقيقته و أقسامه

التفسير حقيقته و أقسامه فى الصافى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار. أقول: و هذا المعنى رواه الفريقان، و فى معناه أحاديث أخر رووها عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أئمة أهل البيت عليهم السّلام. و فى منية المريد عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار. أقول: و رواه أبو داود فى سننه. و فيه عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: من قال فى القرآن بغير علم جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار. و فيه عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: من تكلم فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ. أقول: و رواه أبو داود و الترمذى و النسائى. و فيه عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: أكثر ما أخاف على أمتى من بعدى رجل يتأول القرآن يضعه على غير مواضعه. و فى تفسير العياشى عن أبى بصير عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر و إن أخطأ فهو أبعد من السماء. و فيه عن يعقوب بن يزيد عن ياسر عن الرضا عليه السّلام قال: الرأى فى كتاب اللّه كفر. أقول: و فى معناها روايات أخر مروية فى العيون و الخصال و تفسير العياشى و غيرها. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۲۳ قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: من فسر القرآن برأيه، الرأى هو الاعتقاد عن اجتهاد و ربما أطلق على القول عن الهوى و الاستحسان و كيف كان لما ورد قوله: برأيه مع الإضافة إلى الضمير علم منه أن ليس المراد به النهى عن الاجتهاد المطلق فى تفسير القرآن حتى يكون بالملازمة أمرا بالاتباع و الاقتصار بما ورد من الروايات فى تفسير الآيات عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته عليهم السّلام على ما يراه أهل الحديث، على أنه ينافى الآيات الكثيرة الدالة على كون القرآن عربيا مبينا، و الآمرة بالتدبر فيه، و كذا ينافى الروايات الكثيرة الآمرة بالرجوع إلى القرآن و عرض الأخبار عليه. بل الإضافة فى قوله: برأيه تفيد معنى الاختصاص و الانفراد و الاستقلال بأن يستقل المفسر فى تفسير القرآن بما عنده من الأسباب فى فهم الكلام العربى، فيقيس كلامه تعالى بكلام الناس فإن قطعة من الكلام من أى متكلم إذا ورد علينا لم نلبث دون أن نعمل فيه القواعد المعمولة فى كشف المراد الكلامى و نحكم بذلك: أنه أراد كذا كما نجرى عليه فى الأقارير و الشهادات و غيرهما، كل ذلك لكون بياننا مبنيا على ما نعلمه من اللغة و نعهده من مصاديق الكلمات حقيقة و مجازا. و البيان القرآنى غير جار هذا المجرى على ما تقدم بيانه فى الأبحاث السابقة بل هو كلام موصول بعضه ببعض فى عين أنه مفصول ينطق بعضه ببعض و يشهد بعضه على بعض كما قاله على عليه السّلام فلا يكفى ما يتحصل من آية واحدة بإعمال القواعد المقررة فى العلوم المربوطة فى انكشاف المعنى المراد منها دون أن يتعاهد جميع الآيات المناسبة لها و يجتهد فى التدبر فيها كما يظهر من قوله تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «۱». و قد مرّ بيانه فى الكلام على الإعجاز و غيره. فالتفسير بالرأى المنهى عنه أمر راجع إلى طريق الكشف دون المكشوف، إنما و بعبارة أخرى إنما نهى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن تفهم كلامه على نحو ما

(_____ ۱) النساء- ۸۲. الإعجاز و التحدى فى

القرآن الكريم، ص: ۱۲۴ يتفهم به كلام غيره و إن كان هذا النحو من التفهم ربما صادف الواقع، و الدليل على ذلك قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الرواية الأخرى: من تكلم فى القرآن برأيه فأصابه فقد أخطأ، فإن الحكم بالخطإ مع فرض الإصابة ليس إلّا لكون الخطأ فى الطريق و كذا قوله عليه السّلام فى حديث العياشى: إن أصاب لم يؤجر. و يؤيده ما كان عليه الأمر فى زمن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإن القرآن لم يكن مؤلفا بعد و لم يكن منه إلّا سور أو آيات متفرقة فى أيدى الناس فكان فى تفسير كل قطعة منه خطر الوقوع فى خلاف المراد. و المحصل: أن المنهى عنه إنما هو الاستقلال فى تفسير القرآن و اعتماد المفسر على نفسه من غير رجوع إلى غيره، و لازمه وجوب الاستمداد من الغير بالرجوع إليه، و هذا الغير لا محالة إما هو الكتاب أو السنّة، و كونه هو السنّة ينافى القرآن و نفس السنّة الآمرة بالرجوع إليه و عرض الأخبار عليه، فلا يبقى للرجوع إليه و الاستمداد منه فى تفسير القرآن إلّا نفس القرآن. و من هنا يظهر حال ما فسروا به حديث التفسير بالرأى فقد تشتتوا فى معناه على أقوال: أحدها: أن المراد به التفسير من غير حصول العلوم التى يجوز معها التفسير و هى خمسة عشر علما على ما أنهاه السيوطى فى الإتقان: اللغة، و النحو، و التصريف و الاشتقاق، و المعانى، و البيان، و البديع، و القراءة، و أصول الدين، و أصول الفقه، و أسباب النزول و كذا القصص، و الناسخ و

المنسوخ، و الفقه، و الأحاديث المبينة لتفسير المجملات و المبهمات، و علم الموهبة، و يعنى بالأخير ما أشار إليه الحديث النبوى: من عمل بما علم ورثه اللّه علم ما لم يعلم. الثانى: أن المراد به تفسير المتشابه الذى لا يعلمه إلّا اللّه. الثالث: التفسير المقرر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب أصلا و التفسير تبعا فيرد إليه بأى طريق أمكن و إن كان ضعيفا. الرابع: التفسير بأن مراد اللّه تعالى كذا على القطع من غير دليل. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۲۵ الخامس: التفسير بالاستحسان و الهوى: و هذه الوجوه الخمسة نقلها ابن النقيب على ما ذكره السيوطى فى الإتقان، و هنا وجوه أخر نتبعها بها. السادس: أن المراد به هو القول فى مشكل القرآن بما لا- يعرف من مذاهب الأوائل من الصحابة و التابعين، ففيه تعرض لسخط اللّه تعالى. السابع: القول فى القرآن بما يعلم أن الحق غيره، نقلهما ابن الأنبارى. الثامن: أن المراد به القول فى القرآن بغير علم و تثبت، سواء علم أن الحق خلافه أم لا. التاسع: هو الأخذ بظاهر القرآن بناء على أنه لا ظهور له بل يتبع فى مورد الآية النص الوارد عن المعصوم، و ليس ذلك تفسيرا للآية بل اتباعا للنص، و يكون التفسير على هذا من الشئون الموقوفة على المعصوم. العاشر: أنه الأخذ بظاهر القرآن بناء على أن له ظهورا لا نفهمه بل المتبع فى تفسير الآية هو النص عن المعصوم. فهذه وجوه عشرة، و ربما أمكن إرجاع بعضها إلى بعض، و كيف كان فهى وجوه خالية عن الدليل، على أن بعضها ظاهر البطلان أو يظهر بطلانه بما تقدم فى المباحث السابقة، فلا نطيل بالتكرار. و بالجملة فالمتحصل من الروايات و الآيات التى تؤيدها كقوله تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ الآية، و قوله تعالى: الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ «۱»، و قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى آياتِنا لا- يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَ فَمَنْ يُلْقى فِى النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِى آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ «۲» الآية، و قوله تعالى: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ «۳»، و قوله تعالى: وَ لا- تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ «۴»، إلى غير ذلك أن النهى فى الروايات إنما هو متوجه إلى الطريق و هو أن يسلك فى (_____ ۱)

الحجر- ۹۱. (۲) حم السجدة- ۴۰. (۳) النساء- ۴۶. (۴) الإسراء- ۳۶. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۲۶ تفسير كلامه تعالى الطريق المسلوك فى تفسير كلام غيره من المخلوقين. و ليس اختلاف كلامه تعالى مع كلام غيره فى نحو استعمال الألفاظ و سرد الجمل و إعمال الصناعات اللفظية فإنما هو كلام عربى روعى فيه جميع ما يراعى فى كلام عربى و قد قال تعالى: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ «۱»، و قال تعالى: وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ «۲»، و قال تعالى: إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «۳». و إنما الاختلاف من جهة المراد و المصداق الذى ينطبق عليه مفهوم الكلام. توضيح ذلك: إنا من جهة تعلق وجودنا بالطبيعة الجسمانية و قطوننا المعجل فى الدنيا المادية ألفنا من كل معنى مصداقه المادى، و اعتدنا بالأجسام و الجسمانيات فإذا سمعنا كلام واحد من الناس الذين هم أمثالنا يحكى عن حال أمر من الأمور و فهمنا منه معناه حملناه على ما هو المعهود عندنا من المصداق و النظام الحاكم فيه لعلمنا بأنه لا- يعنى إلّا ذلك لكونه مثلنا لا يشعر إلّا بذلك، و عند ذلك يعود النظام الحاكم فى المصداق يحكم فى المفهوم فربما خصص به العام أو عمم به الخاص أو تصرف فى المفهوم بأى تصرف آخر و هو الذى نسميه بتصرف القرائن العقلية غير اللفظية. مثال ذلك أنا إذا سمعنا عزيزا من أعزتنا ذا سؤدد و ثروة يقول: و إن من شىء إلّا عندنا خزائنه، و تعقلنا مفهوم الكلام و معانى مفرداته حكمنا فى مرحلة التطبيق على المصداق: أن له أبنية محصورة حصينة تسع شيئا كثيرا من المظروفات فإن الخزانة هكذا تتخذ إذا اتخذت، و أن له فيها مقدارا وافرا من الذهب و الفضة و الورق و الأثاث و الزينة و السلاح، فإن هذه الأمور هى التى يمكن أن تخزن عندنا و تحفظ حفظا، و أما الأرض و السماء و البر و البحر و الكواكب و الإنسان فهى و إن كانت أشياء لكنها لا تخزن و لا تتراكم، و لذلك نحكم بأن المراد من الشىء بعض من أفراده غير (_____ ۱) إبراهيم- ۴. (۲) النحل- ۱۰۳. (۳)

الزخرف- ۳. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۲۷ المحصورة. و كذا من الخزائن قليل من كثير فقد عاد النظام الموجود فى المصداق و هو أن كثيرا من الأشياء لا- يخزن، و أن ما يختزن منها إنما يختزن فى بناء حصين مأمون عن الغيلة و الغارة أوجب تقييدا عجيبا فى إطلاق مفهوم الشىء و الخزائن. ثم إذا سمعنا اللّه تعالى ينزل على رسوله قوله: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ «۱»،

فإن لم ترق أذهاننا عن مستواها الساذج الأول فسرنا كلامه بعين ما فسرنا به كلام الواحد من الناس مع أنه لا دليل لنا على ذلك البتة فهو تفسير بما نراه من غير علم. و إن رقت أذهاننا عن ذلك قليلا، و أذعنا بأنه تعالى لا يخزن المال و خاصة إذا سمعناه تعالى يقول فى ذيل الآية: وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ «۲»، حكمنا بأن المراد بالشيء الرزق من الخبز و الماء و أن المراد بنزوله نزول المطر لأنا لا نشعر بشيء ينزل من السماء غير المطر فاختزان كل شيء عند اللّه ثم نزوله بالقدر كناية عن اختزان المطر و نزوله لتهيئة الموارد الغذائية. و هذا أيضا تفسير بما نراه من غير علم إذ لا مستند له إلّا أنّا لا نعلم شيئا ينزل من السماء غير المطر، و الذى بأيدينا هاهنا عدم العلم دون العلم بالعدم. و إن تعالينا عن هذ المستوى أيضا و اجتنبنا ما فيه من القول فى القرآن بغير علم و أبقينا الكلام على إطلاقه التام، و حكمنا أن قوله وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ يبين أمر الخلقة غير أنا لما كنا لا نشك فى أن ما نجده من الأشياء المتجددة بالخلقة كالإنسان و الحيوان و النبات و غيرها لا تنزل من السماء، و إنما تحدث حدوثا فى الأرض حكمنا بأن قوله: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ، كناية عن مطاوعة الأشياء فى وجودها لإرادة اللّه تعالى، و أن الإرادة بمنزلة مخزن يختزن فيه جميع الأشياء المخلوقة و إنما يخرج منه و ينزل من عنده تعالى ما يتعلق به مشيئته تعالى، و هذا أيضا كما ترى تفسير

(_____ ۱) الحجر- ۲۱. (۲) الجاثية- ۵.

الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۲۸ للآية بما نراه من غير علم، إذ لا مستند لنا فيه سوى أنا نجد الأشياء غير نازلة من عند اللّه بالمعنى الذى نعهده من النزول، و لا علم لنا بغيره. و إذا تأملت ما وصفه اللّه تعالى فى كتابه من أسماء ذاته و صفاته و أفعاله و ملائكته و كتبه و رسله و القيامة و ما يتعلق بها، و حكم أحكامه و ملاكاتها، و تأملت ما نرومه فى تفسيرها من إعمال القرائن العقلية وجدت أن ذلك كله من قبيل التفسير بالرأى من غير علم و تحريف لكلمة عن مواضعها. و قد تقدّم فى الفصل الخامس من البحث فى المحكم و المتشابه أن البيانات القرآنية بالنسبة إلى المعارف الإلهية كالأمثال أو هى أمثال بالنسبة إلى ممثلاتها، و قد فرقت فى الآيات المتفرقة، و بينت ببيانات مختلفة ليتبين ببعض الآيات ما يمكن أن يختفى معناه فى بعض، و لذلك كان بعضها شاهدا على البعض، و الآية مفسرة للآية، و لو لا ذلك لاختل أمر المعارف الإلهية فى حقائقها، و لم يمكن التخلص فى تفسير الآية من القول بغير علم على ما تقدم بيانه و من هنا يظهر: أن التفسير بالرأى كما بيناه لا يخلو عن القول بغير علم كما يشير الحديث النبوى السابق: من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار. و من هنا يظهر أيضا: أن ذلك يؤدى إلى ظهور التنافى بين الآيات القرآنية من حيث إبطاله الترتيب المعنوى الموجود فى مضامينها فيؤدى إلى وقوع الآية فى غير موقعها، و وضع الكلمة فى غير موضعها، و يلزمها تأويل بعض القرآن أو أكثر آياته بصرفها عن ظاهرها كما يتأول المجبّرة آيات الاختيار، و المفوّضة آيات القدر، و غالب المذاهب فى الإسلام لا يخلو عن التأول فى الآيات القرآنية و هى الآيات التى لا يوافق ظاهرها مذهبهم فيتشبثون فى ذلك بذيل التأويل استنادا إلى القرينة العقلية، و هو قولهم: إن الظاهر الفلانى قد ثبت خلافه عند العقل فيجب صرف الكلام عنه. و بالجملة يؤدى ذلك إلى اختلاط الآيات بعضها ببعض ببطلان ترتيبها، و دفع مقاصد بعضها ببعض، و يبطل بذلك المرادان جميعا إذ لا اختلاف فى القرآن، فظهور الاختلاف بين الآيات- بعضها مع بعض- ليس إلّا لاختلال الأمر و اختلاط المراد فيهما معا. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۲۹ و هذا هو الذى ورد التعبير عنه فى الروايات بضرب بعض القرآن ببعض كما فى الروايات التالية: فى الكافى و تفسير العياشى عن الصادق عن أبيه عليه السّلام قال: ما ضرب رجل من القرآن بعضه ببعض إلّا كفر. و فى المعانى و المحاسن مسندا و فى تفسير العياشى عن الصادق عليه السّلام ما ضرب رجل من القرآن بعضه ببعض إلّا كفر. قال الصدوق سألت ابن الوليد عن معنى هذا الحديث فقال: هو أن تجيب الرجل فى تفسير آية بتفسير آية أخرى. أقول: ما أجاب به لا يخلو عن إبهام، فإن أراد به الخلط المذكور و ما هو المعمول عند الباحثين فى مناظراتهم من معارضة الآية بالآية و تأويل البعض بالتمسك بالبعض فحق، و إن أراد به تفسير الآية بالآية و الاستشهاد بالبعض للبعض فخطأ، و الروايتان التاليتان تدفعانه. و فى تفسير النعمانى بإسناده إلى إسماعيل بن جابر قال: سمعت أبا عبد اللّه جعفر بن محمد الصادق عليه السّلام يقول: إن اللّه تبارك و تعالى بعث محمدا فختم به الأنبياء فلا نبى بعده، و أنزل عليه

كتابا فختم به الكتب فلا كتاب بعده، أحلّ فيه حلالا و حرم حراما فحلاله حلال إلى يوم القيامة، و حرامه حرام إلى يوم القيامة، فيه شرعكم و خبر من قبلكم و بعدكم، و جعله النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم علما باقيا فى أوصيائه، فتركهم الناس و هم الشهداء على أهل كل زمان، و عدلوا عنهم ثم قتلوهم، و اتبعوا غيرهم ثم أخلصوا لهم الطاعة حتى عاندوا من أظهر ولاية ولاة الأمر و طلب علومهم، قال اللّه سبحانه: وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ «۱» و ذلك أنهم ضربوا بعض القرآن ببعض، و احتجوا بالمنسوخ و هم يظنون أنه الناسخ، و احتجوا بالمتشابه و هم يرون أنه المحكم، و احتجوا بالخاص و هم يقدرون أنه العام، و احتجوا بأول الآية و تركوا السبب فى تأويلها، و لم ينظروا إلى ما يفتح

(_____ ۱) المائدة- ۱۳. الإعجاز و التحدى

فى القرآن الكريم، ص: ۱۳۰ الكلام و إلى ما يختمه، و لم يعرفوا موارده و مصادره إذ لم يأخذوه عن أهله فضلّوا و أضلّوا. و اعلموا رحمكم اللّه: أنه من لم يعرف من كتاب اللّه عزّ و جل الناسخ من المنسوخ و الخاص من العام، و المحكم من المتشابه، و الرخص من العزائم، و المكى و المدنى و أسباب التنزيل، و المبهم من القرآن فى ألفاظه المنقطعة و المؤلفة، و ما فيه من علم القضاء و القدر، و التقديم و التأخير، و المبين و العميق، و الظاهر و الباطن و الابتداء و الانتهاء، و السؤال و الجواب، و القطع و الوصل و المستثنى منه و الجار فيه، الصفة لما قبل مما يدل على ما بعد، و المؤكد منه و المفصل و عزائمه و رخصه، و مواضع فرائضه و أحكامه، و معنى حلاله و حرامه الذى هلك فيه الملحدون، و الموصول من الألفاظ، و المحمول على ما قبله و على ما بعده فليس بعالم بالقرآن و لا هو من أهله. و متى ما ادعى معرفة هذه الأقسام مدع بغير دليل فهو كاذب مرتاب مفتر على اللّه الكذب و رسوله و مأواه جهنم و بئس المصير. و فى نهج البلاغة و الاحتجاج قال عليه السّلام: ترد على أحدهم القضية فى حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله ثم تجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذى استقضاهم فيصوب آراءهم جميعا و إلههم واحد، و نبيهم واحد، و كتابهم واحد، فأمرهم اللّه سبحانه بالاختلاف فأطاعوه؟ أم نهاهم عنه فعصوه؟ أم أنزل اللّه دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه؟ أم كانوا شركاء فلهم أن يقولوا و عليه أن يرضى؟ أم أنزل اللّه دينا تاما فقصر الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن تبليغه و أدائه؟ و اللّه سبحانه يقول: ما فرطنا فى الكتاب من شىء و فيه تبيان كل شىء، و ذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضا، و أنه لا اختلاف فيه فقال سبحانه: وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً، و إن القرآن ظاهره أنيق، و باطنه عميق لا تحصى عجائبه، و لا تنقضى غرائبه، و لا تكشف الظلمات إلّا به. أقول: و الرواية كما ترى ناصة على أن كل نظر دينى يجب أن ينتهى إلى القرآن، و قوله: فيه تبيان، نقل للآية بالمعنى. و فى الدر المنثور: أخرج ابن سعد و ابن الضريس فى فضائله و ابن الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۳۱ مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خرج على قوم يتراجعون فى القرآن و هو مغضب فقال: بهذا ضلّت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، و ضرب الكتاب بعضه ببعض. قال: و إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا و لكن نزل يصدق بعضه بعضا، فما عرفتم فاعملوا به، و ما تشابه عليكم فآمنوا به. و فيه أيضا: أخرج أحمد من وجه آخر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوما يتدارءون فقال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب اللّه بعضه ببعض، و إنما نزل كتاب اللّه يصدق بعضه بعضا فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوا، و ما جهلتم فكلوه إلى عالمه. أقول: و الروايات كما ترى يعد ضرب القرآن بعضه ببعض مقابلا لتصديق بعض القرآن بعضا، و هو الخلط بين الآيات من حيث مقامات معانيها، و الإخلال بترتيب مقاصدها كأخذ المحكم متشابها و المتشابه محكما و نحو ذلك. فالتكلم فى القرآن بالرأى، و القول فى القرآن بغير علم كما هو موضوع الروايات المنقولة سابقا، و ضرب القرآن بعضه ببعضه كما هو مضمون الروايات المنقولة آنفا يحوم الجميع حول معنى واحد و هو الاستمداد فى تفسير القرآن بغيره. فإن قلت: لا ريب أن القرآن إنما نزل ليعقله الناس و يفهموه كما قال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ «۱»، و قال تعالى: هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ «۲»، إلى غير ذلك من الآيات، و لا ريب أن مبينه هو الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما قال تعالى: وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ

إِلَيْهِمْ «۳»، و قد بينه للصحابة، ثم أخذ عنهم التابعون فما نقلوه عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلينا فهو بيان نبوى لا يجوز التجافى و الإغماض عنه بنص القرآن، و ما تكلموا فيه من غير إسناده

(_____ ۱) الزمر- ۴۱. (۲) آل عمران- ۱۳۸.

(۳) النحل- ۴۴. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۳۲ إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهو و إن لم يجر مجرى النبويات فى حجيتها لكن القلب إليه أسكن فإن ما ذكروه فى تفسير الآيات إما مسموع من النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو شىء هداهم إليه الذوق المكتسب من بيانه و تعليمه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كذا ما ذكره تلامذتهم من التابعين و من يتلوهم، و كيف يخفى عليهم معانى القرآن مع تعرقهم فى العربية، و سعيهم فى تلقيها من مصدر الرسالة و اجتهادهم البالغ فى فقه الدين على ما يقصه التاريخ من مساعى رجال الدين فى صدر الإسلام. و من هنا يظهر: أن العدول عن طريقتهم و سنتهم، و الخروج من جماعتهم، و تفسير آية من الآيات بما لا يوجد بين أقوالهم و آرائهم بدعة، و السكوت عما سكتوا عنه واجب. و فى ما نقل عنهم كفاية لمن أراد فهم كتاب اللّه تعالى، فإنه يبلغ زهاء ألوف من الروايات، و قد ذكر السيوطى أنه أنهاه إلى سبعة عشر ألف رواية عن النبى و عن الصحابة التابعين. قلت: قد مرّ فيما تقدم أن الآيات التى تدعو الناس عامة من كافر أو مؤمن ممن شاهد عصر النزول أو غاب عنه إلى تعقل القرآن و تأمله و التدبر فيه و خاصة قوله تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «۱»، تدل دلالة واضحة على أن المعارف القرآنية يمكن أن ينالها الباحث بالتدبر و البحث، و يرتفع به ما يتراءى من الاختلاف بين الآيات، و الآية فى مقام التحدّى، و لا معنى لإرجاع فهم معانى الآيات- و المقام هذا المقام- إلى فهم الصحابة و تلامذتهم من التابعين حتى إلى بيان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإن ما بيّنه إما أن يكون معنى يوافق ظاهر الكلام فهو مما يؤدى إليه اللفظ و لو بعد التدبر و التأمل و البحث، و إما أن يكون معنى لا- يوافق الظاهر و لا- أن الكلام يؤدى إليه فهو مما لا يلائم التحدّى و لا تتم به الحجة و هو ظاهر. نعم تفاصيل الأحكام مما لا- سبيل إلى تلقيه من غير بيان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما أرجعها القرآن إليه فى قوله تعالى: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ

(_____ ۱) النساء- ۸۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۳۳ عَنْهُ فَانْتَهُوا «۱»، و ما فى معناه من الآيات، و كذا تفاصيل القصص و المعاد مثلا. و من هنا يظهر أن شأن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذا المقام هو التعليم فحسب و التعليم إنما هو هداية المعلم الخبير ذهن المتعلم و إرشاده إلى ما يصعب عليه العلم به و الحصول عليه لا ما يمتنع فهمه من غير تعليم، فإنما التعليم تسهيل للطريق و تقريب للمقصد، لا إيجاد للطريق و خلق لمقصده و المعلم فى تعليمه إنما يروم ترتيب المطالب العلمية و نضدها على نحو يستسهله ذهن المتعلم و يأنس به فلا يقع فى جهد الترتيب و كدّ التنظيم فيتلف العمر و موهبة القوة أو يشرف على الغلط فى المعرفة. و هذا هو الذى يدل عليه أمثال قوله تعالى: وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ الآية «۲»، و قوله تعالى: وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ «۳» فالنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنما يعلم الناس و يبين لهم ما يدل عليه القرآن بنفسه و يبيّنه اللّه سبحانه بكلامه، و يمكن للناس الحصول عليه بالآخرة لأنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يبين لهم معانى لا طريق إلى فهمها من كلام اللّه تعالى فإن ذلك لا ينطبق البتة على مثل قوله تعالى: كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ «۴»، و قوله تعالى: وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ «۵». على أن الأخبار المتواترة عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المتضمنة لوصيته بالتمسك بالقرآن و الأخذ به و عرض الروايات المنقولة عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على كتاب اللّه لا يستقيم معناها إلّا مع كون جميع ما نقل عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مما يمكن استفادته من الكتاب، و لو توقف ذلك على بيان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان من الدور الباطل و هو ظاهر. على أن ما ورد به النقل من كلام الصحابة مع قطع النظر عن طرقه لا يخلو عن الاختلاف فيما بين الصحابة أنفسهم بل عن الاختلاف فيما نقل عن الواحد منهم على ما لا يخفى على المتتبع المتأمل فى أخبارهم، و القول (_____ ۱) الحشر- ۷. (۲)

النحل- ۴۴. (۳) الجمعة- ۲. (۴) حم السجدة- ۳. (۵) النحل- ۱۰۳. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۳۴ بأن الواجب حينئذ أن يختاروا أحد الأقوال المختلفة المنقولة عنهم فى الآية، و يجتنب عن خرق إجماعهم و الخروج عن جماعتهم مردود بأنهم أنفسهم لم يسلكوا هذا الطريق، و لم يستلزموا هذا المنهج و لم يبالوا بالخلاف فيما بينهم فكيف يجب على غيرهم أن يقفوا على ما قالوا به و لم يختصوا بحجية قولهم على غيرهم، و لا- بتحريم الخلاف على غيرهم دونهم. على أن هذا الطريق و هو الاقتصار على ما نقل من مفسرى صدر الإسلام من الصحابة و التابعين فى معانى الآيات القرآنية يوجب توقف العلم فى سيره و بطلان البحث فى أثره كما هو مشهود فى ما بأيدينا من كلمات الأوائل و الكتب المؤلفة فى التفسير فى القرون الأولى من الإسلام، و لم ينقل منهم فى التفسير إلّا معان ساذجة بسيطة خالية عن تعمق البحث و تدقيق النظر فأين ما يشير إليه قوله تعالى: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ «۱» من دقائق المعارف فى القرآن؟ و أما استبعاد أن يختفى عليهم معانى القرآن مع ما هم عليه من الفهم و الجد و الاجتهاد فيبطله نفس الخلاف الواقع بينهم فى معانى كثير من الآيات و التناقض الواقع فى الكلمات المنقولة عنهم إذ لا يتصور اختلاف و لا تناقض إلّا مع فرض خفاء الحق و اختلاط طريقه بغيره. فالحق أن الطريق إلى فهم القرآن الكريم غير مسدود، و أن البيان الإلهى و الذكر الحكيم بنفسه هو الطريق الهادى إلى نفسه، أى أنه لا- يحتاج فى تبيين مقاصده إلى طريق، فكيف يتصور أن يكون الكتاب الذى عرفه اللّه تعالى بأنه هدى و أنه نور و أنه تبيان لكل شىء مفتقرا إلى هاد غيره و مستنيرا بنور غيره و مبينا بأمر غيره؟ فإن قلت: قد صح عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال فى آخر خطبة خطبها: إنى تارك فيكم الثقلين: الثقل الأكبر و الثقل الأصغر فأما الأكبر فكتاب ربى، و أما الأصغر فعترتى أهل بيتى فاحفظونى فيهما فلن تضلوا ما تمسكتم بهما رواه الفريقان بطرق متواترة عن جم غفير من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عنه،

(_____ ۱) النحل- ۸۹. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۳۵ أنهى علماء الحديث عدتهم إلى خمس و ثلاثين صحابيا، و فى بعض الطرق: لن يفترقا حتى يردا على الحوض، و الحديث دال على حجية قول أهل البيت عليهم السّلام فى القرآن و وجوب اتباع ما ورد عنهم فى تفسيره و الاقتصار على ذلك و إلّا لزم التفرقة بينهم و بينه. قلت: ما ذكرناه فى معنى اتباع بيان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آنفا جار هاهنا بعينه و الحديث غير مسوق لإبطال حجية ظاهر القرآن و قصر الحجية على ظاهر بيان أهل البيت عليهم السّلام. كيف و هو عليه السّلام يقول: لن يفترقا، فيجعل الحجية لهما معا فللقرآن الدلالة على معانيه و الكشف عن المعارف الإلهية، و لأهل البيت الدلالة على الطريق و هداية الناس إلى أغراضه و مقاصده. على أن نظير ما ورد عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى دعوة الناس إلى الأخذ بالقرآن و التدبر فيه و عرض ما نقل عنه عليه وارد عن أهل البيت عليهم السّلام. على أن جما غفيرا من الروايات التفسيرية الواردة عنهم عليهم السّلام مشتملة على الاستدلال بآية على آية، و الاستشهاد بمعنى على معنى، و لا يستقيم ذلك إلّا بكون المعنى مما يمكن أن يناله المخاطب و يستقل به ذهنه لوروده من طريقه المتعين له. على أن هاهنا روايات عنهم عليهم السّلام تدل على ذلك بالمطابقة كما رواه فى المحاسن بإسناده عن أبى لبيد البحرانى عن أبى جعفر عليه السّلام فى حديث قال: فمن زعم أن كتاب اللّه مبهم فقد هلك و أهلك، و يقرب منه ما فيه و فى الاحتجاج عنه عليه السّلام قال: إذا حدثتكم بشىء فاسألونى عنه من كتاب اللّه، الحديث. و بما مرّ من البيان يجمع بين أمثال هذه الأحاديث الدالة على إمكان نيل المعارف القرآنية منه و عدم احتجابها من العقول و بين ما ظاهره خلافه كما فى تفسير العياشى عن جابر قال: قال أبو عبد اللّه عليه السّلام: إن للقرآن بطنا و للبطن ظهرا، ثم قال: يا جابر و ليس شىء أبعد من عقول الرجال منه إن الآية لتنزل أولها فى شىء و أوسطها فى شىء و آخرها فى شىء، و هو كلام متصل ينصرف على وجوه، و هذا المعنى وارد فى عدة روايات، و قد رويت الجملة أعنى قوله: و ليس شىء أبعد ... إلخ، فى بعضها عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۳۶ و قد روى عن على عليه السّلام: أن القرآن حمال ذو وجوه، الحديث، فالذى ندب إليه تفسيره من طريقه، و الذى نهى عنه تفسيره من غير طريقه، و قد تبيّن أن المتعين فى التفسير الاستمداد بالقرآن على فهمه و

تفسير الآية بالآية و ذلك بالتدرب بالآثار المنقولة عن النبى و أهل بيته عليهم السّلام و تهيئة ذوق مكتسب منها ثم الورود و اللّه الهادى «۱ (_____» ... ۱) انظر جميع ما تقدم فى هذا الموضوع فى المجلد الثالث من الميزان ص ۸۷. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۳۷

عصمة القرآن عن التحريف

اشارة

عصمة القرآن عن التحريف فى فصول:

الفصل الأول القرآن ينفى وقوع التحريف فيه

الفصل الأول القرآن ينفى وقوع التحريف فيه من ضروريات التأريخ أن النبى العربى محمدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جاء قبل أربعة عشر قرنا- تقريبا- و ادعى النبوة و انتهض للدعوة و آمن به أمة من العرب و غيرهم، و أنه جاء بكتاب يسمّيه القرآن و ينسبه إلى ربه متضمن لجمل المعارف و كليات الشريعة التى كان يدعو إليها، و كان يتحدى به و يعده آية لنبوته، و أن القرآن الموجود اليوم بأيدينا هو القرآن الذى جاء به و قرأه على الناس المعاصرين له فى الجملة بمعنى أنه لم يضع من أصله بأن يفقد كله ثم يوضع كتاب آخر يشابهه فى نظمه أو لا يشابهه و ينسب إليه و يشتهر بين الناس بأنه القرآن النازل على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. فهذه أمور لا يرتاب فى شىء منها إلّا مصاب فى فهمه و لا احتمل بعض ذلك أحد من الباحثين فى مسألة التحريف من المخالفين و المؤالفين. و إنما احتمل بعض من قال به من المخالف أو المؤالف زيادة شىء يسير كالجملة أو الآية أو النقص أو التغيير فى جملة أو آية فى كلماتها أو إعرابها، و أما جلّ الكتاب الإلهى فهو على ما هو فى عهد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يضع و لم يفقد. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۳۸ ثم إنا نجد القرآن يتحدّى بأوصاف ترجع إلى عامة آياته و نجد ما بأيدينا من القرآن أعنى ما بين الدفتين واجدا لما وصف به من أوصاف تحدّى بها من غير أن يتغير فى شىء منها أو يفوته و يفقد. فنجده يتحدّى بالبلاغة و الفصاحة و نجد ما بأيدينا مشتملا على ذلك النظم العجيب البديع لا يعدله و لا يشابهه شىء من كلام البلغاء و الفصحاء المحفوظ منهم و المروى عنهم من شعر أو نثر أو خطبة أو رسالة أو محاورة أو غير ذلك، و هذا النظم موجود فى جميع الآيات سواء كتابا متشابها مثانى تقشعر منه الجلود و القلوب. و نجده يتحدّى بقوله: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «۱» بعدم وجود اختلاف فيه و نجد ما بأيدينا من القرآن يفى بذلك أحسن الوفاء و أوفاه فما من إبهام أو خلل يتراءى فى آية إلّا و يرفعه آية أخرى، و ما من خلاف أو مناقضة يتوهم بادئ الرأى من شطر إلّا و هناك ما يدفعه و يفسّره. و نجده يتحدّى بغير ذلك مما لا يختص فهمه بأهل اللغة العربية كما فى قوله: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً «۲»، و قوله: إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ. وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ «۳» ثم نجد ما بأيدينا من القرآن يستوفى البيان فى صريح الحق الذى لا مرية فيه، و يهدى إلى آخر ما يهتدى إليه العقل من أصول المعارف الحقيقية و كليات الشرائع الفطرية و تفاصيل الفضائل الخلقية من غير أن نعثر فيها على شىء من النقيصة و الخلل أو نحصل على شىء من التناقض و الزلل بل نجد جميع المعارف على سعتها و كثرتها حيّة بحياة واحدة مدبّرة بروح واحد هو مبدأ جميع المعارف القرآنية و الأصل الذى إليه ينتهى الجميع و يرجع و هو التوحيد فإليه ينتهى الجميع بالتحليل و هو يعود إلى كل منها بالتركيب. و نجده يغوص فى أخبار الماضين من الأنبياء و أممهم و نجد ما عندنا (_____ ۱) النساء- ۸۲. (۲) الإسراء- ۸۸. (۳) الطارق- ۱۳ و ۱۴. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۳۹ من كلام اللّه يورد قصصهم و يفصل القول فيها على ما

يليق بطهارة الدين و يناسب نزاهة ساحة النبوة و خلوصها للعبودية و الطاعة، و كلما طبقنا قصة من القصص القرآنية على ما يماثلها مما ورد فى العهدين انجلى ذلك أحسن الانجلاء. و نجده يورد آيات فى الملاحم و يخبر عن الحوادث الآتية فى آيات كثيرة بالتصريح أو بالتلويح ثم نجدها فيما هو بأيدينا من القرآن على تلك الشريطة صادقة مصدقة. و نجده يصف نفسه بأوصاف زاكية جميلة كما يصف نفسه بأنه نور و أنه هاد يهدى إلى صراط مستقيم و إلى الملة التى هى أقوم و نجد ما بأيدينا من القرآن لا يفقد شيئا من ذلك و لا يهمل من أمر الهداية و الدلالة و لا دقيقة. و من أجمع الأوصاف التى يذكرها القرآن لنفسه أنه ذكر للّه فإنه يذكر به تعالى بما أنه آية دالة عليه حيّة خالدة، و بما أنه يصفه بأسمائه الحسنى و صفاته العليا، و يصف سنّته فى الصنع و الإيجاد، و يصف ملائكته و كتبه و رسله، و يصف شرائعه و أحكامه و يصف ما ينتهى إليه أمر الخلقة و هو المعاد و رجوع الكل إليه سبحانه، و تفاصيل ما يؤول إليه أمر الناس من السعادة و الشقاء، و الجنة و النار. ففى جميع ذلك ذكر اللّه، و هو الذى يرومه القرآن إطلاق القول بأنه ذكر و نجد ما بأيدينا من القرآن لا يفقد شيئا من معنى الذكر. و لكون الذكر من أجمع الصفات فى الدلالة على شئون القرآن عبّر عنه بالذكر فى الآيات التى أخبر فيها عن حفظه القرآن عن البطلان و التغيير و التحريف كقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ. لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ «۱»، فذكر تعالى أن القرآن من حيث هو ذكر لا يغلبه باطل و لا يدخل فيه حالا و لا فى مستقبل الزمان لا بإبطال و لا

(۱) حم السجدة- ۴۰ إلى ۴۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۴۰ بنسخ و لا بتغيير أو تحريف يوجب زوال ذكريته عنه. و كقوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ «۱» فقد أطلق الذكر و أطلق الحفظ فالقرآن محفوظ بحفظ اللّه عن كل زيادة و نقيصة و تغيير فى اللفظ أو فى الترتيب يزيله عن الذكرية و يبطل كونه ذكرا للّه سبحانه بوجه. و من سخيف القول إرجاع ضمير «له» إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإنه مدفوع بالسياق و إنما كان المشركون يستهزءون بالنبى لأجل القرآن الذى كان يدّعى نزوله عليه كما يشير إليه بقوله سابقا: وَ قالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ «۲». فقد تبين مما فصّلناه أن القرآن الذى أنزله اللّه على نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و وصفه بأنه ذكر محفوظ على ما أنزل مصون بصيانة إلهية عن الزيادة و النقيصة و التغيير كما وعد اللّه نبيه فيه. و خلاصة الحجة أن القرآن أنزله اللّه على نبيه و وصفه فى آيات كثيرة بأوصاف خاصة لو كان تغير فى شىء من هذه الأوصاف بزيادة أو نقيصة أو تغيير فى لفظ أو ترتيب مؤثر فقد آثار تلك الصفة قطعا لكنا نجد القرآن الذى بأيدينا واجدا لآثار تلك الصفات المعدودة على أتم ما يمكن و أحسن ما يكون فلم يقع فيه تحريف يسلبه شيئا من صفاته فالذى بأيدينا منه هو القرآن المنزل على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعينه فلو فرض سقوط شىء منه أو تغير فى إعراب أو حرف أو ترتيب وجب أن يكون فى أمر لا يؤثر فى شىء من أوصافه كالإعجاز و ارتفاع الاختلاف و الهداية و النورية و الذكرية و الهيمنة على سائر الكتب السماوية إلى غير ذلك، و ذلك كآية مكررة ساقطة أو اختلاف فى نقطة أو إعراب و نحوها.

(۱) الحجر- ۹. (۲) الحجر- ۶. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۴۱

الفصل الثانى الروايات تنفى وقوع التحريف

الفصل الثانى الروايات تنفى وقوع التحريف و يدلّ على عدم وقوع التحريف الأخبار الكثيرة المروية عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من طرق الفريقين الآمرة بالرجوع إلى القرآن عند الفتن و فى حل عقد المشكلات. و كذا حديث الثقلين المتواتر من طرق الفريقين: «إنى تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه و عترتى أهل بيتى ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبدا» الحديث فلا معنى للأمر

بالتمسك بكتاب محرّف و نفى الضلال أبدا ممن تمسك به. و كذا الأخبار الكثيرة الواردة عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أئمة أهل البيت عليهم السّلام الآمرة بعرض الأخبار على الكتاب، و ما ذكره بعضهم أن ذلك فى الأخبار الفقهية و من الجائز أن نلتزم بعدم وقوع التحريف فى خصوص آيات الأحكام و لا ينفع ذلك سائر الآيات مدفوع بأن أخبار العرض مطلقة فتخصيصها بذلك تخصيص من غير مخصص. على أن لسان أخبار العرض كالصريح أو هو صريح فى أن الأمر بالعرض إنما هو لتمييز الصدق من الكذب و الحق من الباطل و من المعلوم أن الدس و الوضع غير مقصورين فى أخبار الفقه بل الدواعى إلى الدس و الوضع فى المعارف الاعتقادية و قصص الأنبياء و الأمم الماضين و أوصاف المبدأ و المعاد أكثر و أوفر و يؤيد ذلك ما بأيدينا من الإسرائيليات و ما يحذو حذوها مما أمر الجعل فيها أوضح و أبين. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۴۲ و كذا الأخبار التى تتضمن تمسّك أئمة أهل البيت عليهم السّلام بمختلف الآيات القرآنية فى كل باب على ما يوافق القرآن الموجود عندنا حتى فى الموارد التى فيها آحاد من الروايات بالتحريف، و هذا أحسن شاهد على أن المراد فى كثير من روايات التحريف من قولهم عليهم السّلام: كذا نزل هو التفسير بحسب التنزيل فى مقابل البطن و التأويل. و كذا الروايات الواردة عن أمير المؤمنين عليه السّلام و سائر الأئمة من ذريّته عليهم السّلام فى أن ما بأيدى الناس قرآن نازل من عند اللّه تعالى و إن كان غير ما ألفه على عليه السّلام من المصحف و لم يشركوه عليه السّلام فى التأليف فى زمن أبى بكر و لا فى زمن عثمان و من هذا الباب قولهم عليه السّلام لشيعتهم: «اقرءوا كما قرأ الناس». و مقتضى هذه الروايات أن لو كان القرآن الدائر بين الناس مخالفا لما ألفه على عليه السّلام فى شىء فإنما يخالفه فى ترتيب السور أو فى ترتيب بعض الآيات التى لا يؤثر اختلال ترتيبها فى مدلولها شيئا و لا فى الأوصاف التى وصف اللّه سبحانه بها القرآن النازل من عنده ما يختل به آثارها. فمجموع هذه الروايات على اختلاف أصنافها يدلّ دلالة قاطعة على أن الذى بأيدينا من القرآن هو القرآن النازل على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من غير أن يفقد شيئا من أوصافه الكريمة و آثارها و بركاتها. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۴۳

الفصل الثالث نقد القول بالتحريف

اشارة

الفصل الثالث نقد القول بالتحريف ذهب جماعة من محدثى الشيعة و الحشوية و جماعة من محدثى أهل السنة إلى وقوع التحريف بمعنى النقص و التغيير فى اللفظ أو الترتيب دون الزيادة فلم يذهب إليها أحد من المسلمين كما قيل.

و احتجوا على نفى الزيادة بالإجماع و على وقوع النقص و التغيير بوجوه

اشارة

و احتجوا على نفى الزيادة بالإجماع و على وقوع النقص و التغيير بوجوه كثيرة:

الوجه الأول: الأخبار

الوجه الأول: الأخبار الكثيرة المروية من طرق الشيعة و أهل السنّة الدالّة على سقوط بعض السور و الآيات و كذا الجمل و أجزاء الجمل و الكلمات و الحروف فى الجمع الأول الذى ألف فيه القرآن فى زمن أبى بكر، و كذا فى الجمع الثانى الذى كان فى زمن عثمان و كذا التغيير و هذه روايات كثيرة روتها الشيعة فى جوامعها المعتبرة و غيرها، و قد ادّعى بعضهم أنّها تبلغ ألفى حديث، و

روتها أهل السنّة فى صحاحهم كصحيحى البخارى و مسلم و سنن أبى داود و النسائى و أحمد و سائر الجوامع و كتب التفاسير و غيرها و قد ذكر الآلوسى فى تفسيره أنها فوق حدّ الإحصاء. و هذا غير ما يخالف فيه مصحف عبد اللّه بن مسعود المصحف المعروف مما ينيف على ستين موضعا، و ما يخالف فيه مصحف أبى بن كعب المصحف العثمانى و هو فى بضع و ثلاثين موضعا، و ما تختلف فيه المصاحف العثمانية التى اكتتبها و أرسلها إلى الآفاق و هى خمسة أو سبعة أرسلها إلى مكة و إلى الشام و إلى البصرة و إلى الكوفة و إلى اليمن و إلى الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۴۴ البحرين و حبس واحدا بالمدينة و الاختلاف الذى فيما بينها يبلغ خمسة و أربعين حرفا، و قيل: بضع و خمسين حرفا. و غير الاختلاف فى الترتيب بين المصاحف العثمانية و الجمع الأول فى زمن أبى بكر فقد كانت سورة الأنفال فى التأليف الأول فى المثانى و سورة براءة فى المئين و هما فى الجمع الثانى موضوعتان فى الطوال على ما ستجىء روايته. و غير الاختلاف فى ترتيب السور الموجود بين مصحفى عبد اللّه بن مسعود و أبى بن كعب على ما وردت به الرواية و بين المصاحف العثمانية، و غير الاختلافات القرائية الشاذة التى رويت عن الصحابة و التابعين فربما بلغ عدد المجموع الألف أو زاد عليه.

الوجه الثانى: أن العقل يحكم

الوجه الثانى: أن العقل يحكم بأنه إذا كان القرآن متفرقا متشتتا منتشرا عند الناس و تصدّى لجمعه غير المعصوم يمتنع عادة أن يكون جمعه كاملا موافقا للواقع.

الوجه الثالث: ما روته العامة و الخاصة أن عليا عليه السّلام

الوجه الثالث: ما روته العامة و الخاصة أن عليا عليه السّلام اعتزل الناس بعد رحلة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يرتد إلّا للصلاة حتى جمع القرآن ثم حمله إلى الناس و أعلمهم أنه القرآن الذى أنزله اللّه على نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد جمعه فردوه و استغنوا عنه بما جمعه لهم زيد بن ثابت و لو لم يكن بعض ما فيه مخالفا لبعض ما فى مصحف زيد لم يكن لحمله إليهم و إعلامهم و دعوتهم إليه وجه، و قد كان عليه السّلام أعلم الناس بكتاب اللّه بعد نبيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد أرجع الناس إليه فى حديث الثقلين المتواتر و قال فى الحديث المتفق عليه: «علىّ مع الحق و الحق مع علىّ».

الوجه الرابع: ما ورد من الروايات أنه يقع فى هذه الأمة ما وقع فى بنى إسرائيل

الوجه الرابع: ما ورد من الروايات أنه يقع فى هذه الأمة ما وقع فى بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل و القذة بالقذة، و قد حرّفت بنو إسرائيل كتاب نبيّهم على ما يصرح به القرآن الكريم و الروايات المأثورة، فلا بد أن يقع نظيره فى هذه الأمة فيحرفوا كتاب ربهم و هو القرآن الكريم. ففى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: لتتبعنّ سنن من كان قبلكم شبرا بشبر و ذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۴۵ ضبّ لتبعتموه، قلنا: يا رسول اللّه بآبائنا و أمهاتنا اليهود و النصارى؟ قال فمن؟ و الرواية مستفيضة مروية فى جوامع الحديث عن عدة من الصحابة كأبى سعيد الخدرى- كما مرّ- و أبى هريرة و عبد اللّه بن عمر، و ابن عباس و حذيفة و عبد اللّه بن مسعود و سهل بن سعد و عمر بن عوف و عمرو بن العاص و شداد بن أوس و المستورد بن شداد فى ألفاظ متقاربة. و هى مروية مستفيضة من طرق الشيعة عن عدة من أئمة أهل البيت عليهم السّلام عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما فى تفسير القمى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لتركبنّ سبيل من كان قبلكم حذو النعل بالنعل و القذة بالقذة لا تخطئون طريقهم و لا تخطئ شبر بشبر و ذراع بذراع و باع بباع حتى أن لو كان من قبلكم دخل جحر

ضبّ لدخلتموه قالوا: اليهود و النصارى تعنى يا رسول اللّه؟ قال: فمن أعنى؟ لتنقضنّ عرى الإسلام عروة عروة فيكون أول ما تنقضون من دينكم الأمانة و آخره الصلاة. و الجواب عن استدلالهم بإجماع الأمة على نفى تحريف القرآن بالزيادة بأنها حجة مدخولة لكونها دورية. بيان ذلك: أن الإجماع ليس فى نفسه حجة عقلية يقينية بل هو عند القائلين باعتباره حجة شرعية لو أفاد شيئا من الاعتقاد فإنما يفيد الظن سواء فى ذلك محصله و منقوله على خلاف ما يزعمه كثير منهم أن الإجماع المحصّل مفيد للقطع و ذلك أن الذى يفيده الإجماع من الاعتقاد لا يزيد على مجموع الاعتقادات التى تفيدها آحاد الأقوال و الواحد من الأقوال المتوافقة لا يفيد إلّا الظن بإصابة الواقع، و انضمام القول الثانى الذى يوافقه إليه إنما يفيد قوة الظن دون القطع لأن القطع اعتقاد خاص بسيط مغاير للظن و ليس بالمركّب من عدة ظنون. و هكذا كلما انضم قول إلى قول تراكمت الأقوال المتوافقة و زاد الظن قوة و تراكمت الظنون و اقتربت من القطع من غير أن تنقلب إليه كما تقدم، هذا فى المحصّل من الإجماع و هو الذى نحصله بتتبع جميع الأقوال و الحصول على كل قول قول، و أما المنقول منه الذى ينقله الواحد و الاثنان الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۴۶ من أهل العلم و البحث فالأمر فيه أوضح فهو كآحاد الروايات لا يفيد إلّا الظن إن أفاد شيئا من الاعتقاد. فالإجماع حجة ظنية شرعية دليل اعتبارها عند أهل السنّة مثلا قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «لا تجتمع أمتى على خطاء أو ضلال» و عند الشيعة دخول قول المعصوم فى أقوال المجمعين أو كشف أقوالهم عن قوله بوجه. فحجية الإجماع بالجملة متوقفة على صحة النبوة و ذلك ظاهر، و صحة النبوة اليوم متوقفة على سلامة القرآن من التحريف المستوجب لزوال صفات القرآن الكريمة عنه كالهداية و فصل القول و خاصة الإعجاز فإنه لا دليل حيا خالدا على خصوص نبوة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم غير القرآن الكريم بكونه آية معجزة، و مع احتمال التحريف بزيادة أو نقيصة أو أى تغيير آخر لا وثوق بشىء من آياته و محتوياته أنه كلام اللّه محضا و بذلك تسقط الحجة و تفسد الآية، و مع سقوط كتاب اللّه عن الحجية يسقط الإجماع عن الحجية. و لا ينفع فى المقام ما قدمناه فى أول الكلام أن وجود القرآن المنزل على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيما بأيدينا من القرآن فى الجملة من ضروريات التاريخ. و ذلك لأن مجرد اشتمال ما بأيدينا منه على القرآن الواقعى لا يدفع احتمال زيادة أو نقيصة أو أى تغيير آخر فى كل آية أو جملة أريد التمسك بها لإثبات مطلوب.

و الجواب عن الوجه الأول

و الجواب عن الوجه الأول الذى أقيم لوقوع التحريف بالنقص و التغيير و هو الذى تمسك فيه بالأخبار: أما أولا فبأن التمسك بالأخبار بما أنها حجة شرعية يشتمل من الدور على ما يشتمل عليه التمسك بالإجماع بنظير البيان الذى تقدم آنفا. فلا يبقى للمستدل بها إلّا أن يتمسك بها بما أنها أسناد و مصادر تاريخية و ليس فيها حديث متواتر و لا محفوف بقرائن قطعية تضطرّ العقل إلى قبوله بل هى آحاد متفرقة متشتتة مختلفة منها صحاح و منها ضعاف فى أسنادها و منها قاصرة فى دلالتها فما أشذّ منها ما هو صحيح فى سنده تام فى دلالته. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۴۷ و هذا النوع على شذوذه و ندرته غير مأمون فيه الوضع و الدسّ فإن انسراب الإسرائيليات و ما يلحق بها من الموضوعات و المدسوسات بين رواياتنا لا سبيل إلى إنكاره و لا حجية فى خبر لا يؤمن فيه الدسّ و الوضع. و مع الغض عن ذلك فهى تذكر من الآيات و السور ما لا يشبه النظم القرآنى بوجه، و مع الغضّ عن جميع ذلك فإنها مخالفة للكتاب مردودة. أما ما ذكرنا أن أكثرها ضعيفة الأسناد فيعلم ذلك بالرجوع إلى أسانيدها فهى مراسيل أو مقطوعة الأسناد أو ضعيفتها، و السالم منها من هذه العلل أقلّ قليل. و أما ما ذكرنا أن منها ما هو قاصر فى دلالتها فإن كثيرا مما وقع فيها من الآيات المحكية من قبيل التفسير و ذكر معنى الآيات لا من حكاية متن الآية المحرّفة و ذلك كما فى روضة الكافى عن أبى الحسن الأول فى قول اللّه: أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عِظْهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً «۱». و ما فى الكافى عن الصادق عليه السلام فى قوله تعالى: وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا «۲» قال: «إن تلووا الأمر و تعرضوا عما أمرتم به فإن اللّه كان بما تعملون خبيرا» إلى غير ذلك من روايات التفسير المعدودة من أخبار التحريف. و يلحق بهذا الباب ما لا يحصى من الروايات المشيرة إلى سبب النزول

المعدودة من أخبار التحريف كالروايات التى تذكر هذه الآية هكذا: «يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك فى على» و الآية نازلة فى حقه عليه السّلام، و ما روى أن وفد بنى تميم كانوا إذا قدموا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وقفوا على باب الحجرة و نادوه أن اخرج إلينا فذكرت الآية فيها هكذا: «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات بنو تميم أكثرهم لا يعقلون» فظن أن فى الآية سقطا. و يلحق بهذا الباب أيضا ما لا يحصى من الأخبار الواردة فى جرى القرآن

(_____ ۱) النساء- ۶۳. (۲) النساء- ۱۳۵.

الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۴۸ و انطباقه كما ورد فى قوله: «و سيعلم الذين ظلموا آل محمد حقهم» و ما ورد من قوله: «و من يطع اللّه و رسوله فى ولاية على و الأئمة من بعده فقد فاز فوزا عظيما» و هى كثيرة جدا. و يلحق بها أيضا ما أتبع فيه القراءة بشىء من الذكر و الدعاء فتوهّم أنه من سقط القرآن كما فى الكافى عن عبد العزيز بن المهتدى قال: سألت الرضا عليه السّلام عن التوحيد فقال: كل من قرأ قل هو اللّه أحد و آمن بها فقد عرف التوحيد، قال: [قلت كيف نقرؤها؟ قال: كما يقرؤها الناس و زاد فيه كذلك اللّه ربى كذلك اللّه ربى. و من قبيل قصور الدلالة ما نجد فى كثير من الآيات المعدودة من المحرّفة اختلاف الروايات فى لفظ الآية كالتى وردت فى قوله تعالى: «و لقد نصركم اللّه ببدر و أنتم أذلة» ففى بعضها أن الآية هكذا: «و لقد نصركم اللّه ببدر و أنتم ضعفاء» و فى بعضها: «و لقد نصركم اللّه ببدر و أنتم قليل». و هذا الاختلاف ربما كان قرينة على أن المراد هو التفسير بالمعنى كما فى الآية المذكورة، و يؤيده ما ورد فى بعضها من قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لا يجوز وصفهم بأنهم أذلة و فيهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و ربما لم يكن إلّا من التعارض و التنافى بين الروايات القاضى بسقوطها كآية الرجم على ما ورد فى روايات الخاصة و العامة و هى فى بعضها: «إذا زنى الشيخ و الشيخة فارجموهما البتة فإنهما قضيا الشهوة»، و فى بعضها: «الشيخ و الشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة فإنهما قضيا الشهوة»، و فى بعضها: «بما قضيا اللذة» و فى بعضها آخرها: «نكالا من اللّه و اللّه عليم حكيم» و فى بعضها: «نكالا من اللّه و اللّه عزيز حكيم». و كآية الكرسى على التنزيل التى وردت فيها روايات فهى فى بعضها هكذا: اللّه لا- إله إلّا هو الحى القيوم لا- تأخذه سنة و لا- نوم له ما فى السموات و ما فى الأرض و ما بينهما و ما تحت الثرى عالم الغيب و الشهادة فلا يظهر على غيبه أحدا من ذا الذى يشفع عنده- إلى قوله- و هو العلى العظيم و الحمد للّه رب العالمين. و فى بعضها- إلى قوله- هم فيها خالدون و الحمد للّه رب العالمين، الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۴۹ و فى بعضها هكذا «له ما فى السموات و ما فى الأرض و ما بينهما و ما تحت الثرى عالم الغيب و الشهادة الرحمن الرحيم» إلخ، و فى بعضها: «عالم الغيب و الشهادة الرحمن الرحيم بديع السماوات و الأرض ذو الجلال و الإكرام رب العرش العظيم» و فى بعضها: «عالم الغيب و الشهادة العزيز الحكيم». و ما ذكره بعض المحدثين أن اختلاف هذه الروايات فى الآيات المنقولة غير ضائر لاتفاقها فى أصل التحريف. مردود بأن ذلك لا- يصلح ضعف الدلالة و دفع بعضها لبعض. و أما ما ذكرنا من شيوع الدس و الوضع فى الروايات فلا يرتاب فيه من راجع الروايات المنقولة فى الصنع و الإيجاد و قصص الأنبياء و الأمم و الأخبار الواردة فى تفاسير الآيات و الحوادث الواقعة فى صدر الإسلام و أعظم ما يهم أمره لأعداء الدين و لا- يألون جهدا فى إطفاء نوره و إخماد ناره و إعفاء أثره هو القرآن الكريم الذى هو الكهف المنيع و الركن الشديد الذى يأوى إليه و يتحصن به المعارف الدينية، و السند الحى الخالد لمنشور النبوة و موادّ الدعوة لعلمهم بأنه لو بطلت حجة القرآن لفسد بذلك أمر النبوة و اختل نظام الدين و لم يستقر من بنيانه حجر على حجر. و العجب من هؤلاء المحتجين بروايات منسوبة إلى الصحابة أو إلى أئمة أهل البيت عليهم السّلام على تحريف كتاب اللّه سبحانه و إبطال حجيته، و ببطلان حجة القرآن تذهب النبوة سدى و المعارف الدينية لغى لا أثر لها، و ما ذا يغنى قولنا: إن رجلا فى تاريخ كذا ادعى النبوة و أتى بالقرآن معجزة أما هو فقد مات و أما قرآنه فقد حرّف، و لم يبق بأيدينا مما يؤيد أمره إلّا أن المؤمنين به أجمعوا على صدقه فى دعواه و أن القرآن الذى جاء به كان معجزا دالا على نبوته، و الإجماع حجة لأن النبى المذكور اعتبر حجيته أو لأنه يكشف مثلا عن قول أئمة أهل بيته؟ و بالجملة احتمال الدس- و هو قريب جدا مؤيد بالشواهد و القرائن- يدفع حجية هذه الروايات و يفسد اعتبارها

فلا يبقى معه لها لا حجية شرعية و لا حجية عقلائية حتى ما كان منها صحيح الإسناد فإن صحة السند و عدالة رجال الطريق إنما يدفع تعمدهم الكذب دون دس غيرهم فى أصولهم الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۵۰ و جوامعهم ما لم يرووه. و أما ما ذكرناه أن روايات التحريف تذكر آيات و سورا لا يشبه نظمها النظم القرآنى بوجه فهو ظاهر لمن راجعها فإنه يعثر فيها بشىء كثير من ذلك كسورتى الخلع و الحفد اللتين رويتا بعدة من طرق أهل السنّة فسورة الخلع هى: «بسم اللّه الرحمن الرحيم اللهم إنا نستعينك و نستغفرك، و نثنى عليك و لا نكفرك، و نخلع و نترك من يفجرك» و سورة الحفد هى: «بسم اللّه الرحمن الرحيم اللهم إياك نعبد و لك نصلى و نسجد، و إليك نسعى و نحفد، نرجو رحمتك و نخشى نقمتك إن عذابك بالكافرين ملحق». و كذا ما أورده بعض الروايات من سورة الولاية و غيرها أقاويل مختلفة رام واضعها أن يقلد النظم القرآنى فخرج الكلام عن الأسلوب العربى المألوف و لم يبلغ النظم الإلهى المعجز فعاد يستبشعه الطبع و ينكره الذوق و لك أن تراجعها حتى تشاهد صدق ما ادعيناه، و تقضى أن أكثر المعتنين بهذه السور و الآيات المختلفة المجعولة إنما دعاهم إلى ذلك التعبّد الشديد بالروايات و الإهمال فى عرضها على الكتاب و لو لا ذلك لكفتهم للحكم بأنها ليست بكلام إلهى نظرة. و أما ما ذكرنا أن روايات التحريف على تقدير صحة إسنادها مخالفة للكتاب فليس المراد به مجرد مخالفتها لظاهر قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ و قوله: وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ. لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ الآيتان، حتى تكون مخالفة ظنية لكون ظهور الألفاظ من الأدلة الظنية بل المراد مخالفتها للدلالة القطعية من مجموع القرآن الذى بأيدينا حسب ما قررناه فى الحجة الأولى التى أقمناها لنفى التحريف. كيف لا؟ و القرآن الذى بأيدينا متشابه الأجزاء فى نظمه البديع المعجز كاف فى رفع الاختلافات المتراءاة بين آياته و أبعاضه غير ناقص و لا قاصر فى إعطاء معارفه الحقيقية و علومه الإلهية الكلية و الجزئية المرتبطة بعضها ببعض المترتبة فروعها على أصولها المنعطفة أطرافها على أوساطها إلى غير ذلك من خواصّ النظم القرآنى الذى وصفه اللّه بها.

و الجواب عن الوجه الثانى

و الجواب عن الوجه الثانى أن دعوى الامتناع العادى مجازفة بيّنة نعم يجوّز العقل عدم موافقة التأليف فى نفسه للواقع إلّا أن تقوم قرائن تدل على الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۵۱ ذلك و هى قائمة كما قدمنا، و أما أن يحكم العقل بوجوب مخالفتها للواقع كما هو مقتضى الامتناع العادى فلا.

و الجواب عن الوجه الثالث

و الجواب عن الوجه الثالث أن جمعه عليه السّلام القرآن و حمله إليهم و عرضه عليهم لا يدل على مخالفة ما جمعه لما جمعوه فى شىء من الحقائق الدينية الأصلية أو الفرعية إلّا أن يكون فى شىء من ترتيب السور أو الآيات من السور التى نزلت نجوما بحيث لا يرجع إلى مخالفة فى بعض الحقائق الدينية. و لو كان كذلك لعارضهم بالاحتجاج و دافع فيه و لم يقنع بمجرد إعراضهم عما جمعه و استغنائهم عنه كما روى عنه عليه السّلام فى موارد شتى، و لم ينقل عنه عليه السّلام فيما روى من احتجاجاته أنه قرأ فى أمر ولايته و لا غيرها آية أو سورة تدل على ذلك و جبّههم على إسقاطها أو تحريفها. و هل كان ذلك حفظا لوحدة المسلمين و تحرزا عن شق العصا فإنما كان يتصور ذلك بعد استقرار الأمر و اجتماع الناس على ما جمع لهم لا حين الجمع و قبل أن يقع فى الأيدى و يسير فى البلاد. و ليت شعرى هل يسعنا أن ندعى أن ذلك الجم الغفير من الآيات التى يرون سقوطها و ربما ادعوا أنها تبلغ الألوف كانت جميعا فى الولاية أو كانت خفية مستورة عن عامة المسلمين لا يعرفها إلّا النزر القليل منهم مع توفر دواعيهم و كثرة رغباتهم على أخذ القرآن كلما نزل و تعلمه، و بلوغ اجتهاد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى تبليغه و إرساله إلى الآفاق و تعليمه و بيانه، و قد نص

على ذلك القرآن قال تعالى: وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ «۱»، و قال: لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ «۲» فكيف ضاع؟ و أين ذهب؟ ما يشير إليه بعض المراسيل أنه سقط فى آية من أول سورة النساء بين قوله وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى إلى قوله: فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ أكثر من ثلث القرآن أى أكثر من ألفى آية، و ما ورد من طرق أهل السنّة أن سورة براءة كانت مبسملة

(_____ ۱) الجمعة- ۲. (۲) النحل- ۴۴.

الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۵۲ تعدل سورة البقرة، و أن الأحزاب كانت أعظم من البقرة و قد سقطت منه مائتا آية إلى غير ذلك!. أو أن هذه الآيات و قد دلت هذه الروايات على بلوغها فى الكثرة- كانت منسوخة التلاوة كما ذكره جمع من المفسرين من أهل السنّة حفظا لما ورد فى بعض رواياتهم أن من القرآن ما أنساه اللّه و نسخ تلاوته. فما معنى إنساء الآية و نسخ تلاوتها؟ أ كان ذلك لنسخ العمل بها فما هى هذه الآيات المنسوخة الواقعة فى القرآن كآية الصدقة و آية نكاح الزانية و الزانى و آية العدة و غيرها؟ و هم مع ذلك يقسمون منسوخ التلاوة إلى منسوخ التلاوة و العمل معا و منسوخ التلاوة دون العمل كآية الرجم. أم كان ذلك لكونها غير واجدة لبعض صفات كلام اللّه حتى أبطلها اللّه بإمحاء ذكرها و إذهاب أثرها فلم يكن من الكتاب العزيز الذى لا- يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و لا منزها من الاختلاف، و لا قولا فصلا و لا هاديا إلى الحق و إلى طريق مستقيم، و لا معجزا يتحدى به و لا، و لا، فما معنى الآيات الكثيرة التى تصف القرآن بأنه فى لوح محفوظ، و أنه كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و أنه قول فصل، و أنه هدى، و أنه نور، و أنه فرقان بين الحق و الباطل، و أنه آية معجزة، و أنه، و أنه؟ فهل يسعنا أن نقول: إن هذه الآيات على كثرتها و إباء سياقها عن التقييد مقيدة بالبعض فبعض الكتاب فقط و هو غير المنسى و منسوخ التلاوة لا يأتيه الباطل و قول فصل و هدى و نور و فرقان و معجزة خالدة؟ و هل جعل الكلام منسوخ التلاوة و نسيا منسيا غير إبطاله و إماتته؟ و هل صيرورة القول النافع بحيث لا ينفع للأبد و لا يصلح شأنا مما فسد غير إلغائه و طرحه و إهماله؟ و كيف يجامع ذلك كون القرآن ذكرا؟ فالحق أن روايات التحريف المروية من طرق الفريقين و كذا الروايات المروية فى نسخ تلاوة بعض الآيات القرآنية مخالفة للكتاب مخالفة قطعية.

و الجواب عن الوجه الرابع:

و الجواب عن الوجه الرابع: أن أصل الأخبار القاضية بمماثلة الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۵۳ الحوادث الواقعة فى هذه الأمة لما وقع فى بنى إسرائيل مما لا ريب فيه، و هى متظافرة أو متواترة، لكن هذه الروايات لا تدل على المماثلة من جميع الجهات، و هو ظاهر بل الضرورة تدفعه. فالمراد بالمماثلة هى المماثلة فى الجملة من حيث النتائج و الآثار، و حينئذ فمن الجائز أن تكون مماثلة هذه الأمة لبنى إسرائيل فى مسألة تحريف الكتاب إنما هى فى حدوث الاختلاف و التفرق بين الأمة بانشعابها إلى مذاهب شتى يكفّر بعضهم بعضا و افتراقها إلى ثلاث و سبعين فرقة كما افترقت النصارى إلى اثنتين و سبعين و اليهود إلى واحدة و سبعين و قد ورد هذا المعنى فى كثير من هذه الروايات حتى ادعى بعضهم كونها متواترة. و من المعلوم أن الجميع مستندون فيما اختاروه إلى كتاب اللّه، و ليس ذلك إلا من جهة تحريف الكلم عن مواضعه، و تفسير القرآن الكريم بالرأى و الاعتماد على الأخبار الواردة فى تفسير الآيات من غير العرض على الكتاب و تمييز الصحيح منها من السقيم. و بالجملة أصل الروايات الدالة على المماثلة بين الأمتين لا يدل على شىء من التحريف الذى يدّعونه نعم وقع فى بعضها ذكر التحريف بالتغيير و الإسقاط، و هذه الطائفة على ما بها من السقم مخالفة للكتاب كما تقدم «۱ (_____». ۱) راجع الميزان المجلد ۱۲ ص ۱۰۲. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۵۴

جمع القرآن الكريم

اشارة

جمع القرآن الكريم فى تاريخ اليعقوبى: قال عمر بن الخطاب لأبى بكر: يا خليفة رسول اللّه إن حملة القرآن قد قتل أكثرهم يوم اليمامة فلو جمعت القرآن فإنى أخاف عليه أن يذهب حملته، فقال له أبو بكر: أفعل ما لم يفعله رسول اللّه؟ فلم يزل به عمر حتى جمعه و كتبه فى صحف و كان مفرّقا فى الجريد و غيرها. و أجلس خمسة و عشرين رجلا من قريش و خمسين رجلا من الأنصار فقال: اكتبوا القرآن و اعرضوا على سعيد بن العاص فإنه رجل فصيح. و روى بعضهم أن على بن أبى طالب عليه السّلام كان جمعه لما قبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أتى به يحمله على جمل فقال: هذا القرآن قد جمعته. قال: و كان قد جزّأه سبعة أجزاء ثم ذكر الأجزاء. و فى تاريخ أبى الفداء: و قتل فى قتال مسيلمة جماعة من القرّاء من المهاجرين و الأنصار، و لما رأى أبو بكر كثرة من قتل أمر بجمع القرآن من أفواه الرجال و جريد النخل و الجلود، و ترك ذلك المكتوب عند حفصة بنت عمر زوج النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، انتهى. و الأصل فيما ذكراه الروايات فقد أخرج البخارى فى صحيحه عن زيد ابن ثابت قال: أرسل إلىّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال أبو بكر إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استحرّ بقراء القرآن و إنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن، و إنى أرى أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟ قال عمر: هذا و اللّه خير، فلم يزل يراجعنى حتى شرح اللّه صدرى لذلك و رأيت الذى رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك و قد كنت تكتب الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۵۵ الوحى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتتبع القرآن فاجمعه. فو اللّه لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟ قال: هو و اللّه خير. فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح اللّه صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر و عمر فتتبعت القرآن أجمعه من العسب و اللخاف و صدور الرجال، و وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره: «لقد جاءكم رسول» حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه اللّه تعالى ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر. و عن ابن أبى داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: قدم عمر فقال: من كان تلقى من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شيئا من القرآن فليأت به و كانوا يكتبون ذلك فى الصحف و الألواح و العسب، و كان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شهيدان. و عنه أيضا من طريق هشام بن عروة عن أبيه- و فى الطريق انقطاع- أن أبا بكر قال لعمر و لزيد: اقعدوا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شىء من كتاب اللّه فاكتباه. و فى الإتقان عن ابن أشتة فى المصاحف عن الليث بن سعد قال: أول من جمع القرآن أبو بكر و كتبه زيد، و كان الناس يأتون زيد بن ثابت فكان لا يكتب آية إلّا بشاهدى عدل، و إن آخر سورة براءة لم يوجد إلّا مع أبى خزيمة بن ثابت فقال: اكتبوها فإن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جعل شهادته بشهادة رجلين فكتب و إن عمر أتى بآية الرجم فلم يكتبها لأنه كان وحده. و عن ابن أبى داود فى المصاحف من طريق محمد بن إسحاق عن يحيى بن عبّاد بن عبد اللّه بن الزبير عن أبيه قال: أتانى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة فقال: أشهد أنى سمعتهما من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و وعيتهما، فقال عمر: و أنا أشهد لقد سمعتهما من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و وعيتهما، فقال عمر: و أنا أشهد لقد سمعتها ثم قال: لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا آخر سورة من القرآن فألحقوها فى آخرها. و عنه أيضا من طريق أبى العالية عن أبى بن كعب أنهم جمعوا القرآن الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۵۶ فلما انتهوا إلى الآية التى فى سورة براءة ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ظنوا أن هذا آخر ما أنزل فقال أبىّ: إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أقرأنى بعد هذا آيتين لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ إلى آخر السورة. و فى الإتقان عن الدير عاقولى فى فوائده حدثنا إبراهيم بن يسار حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهرى عن عبيد عن زيد بن ثابت قال: قال: قبض النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يكن القرآن جمع فى شىء. و فى مستدرك الحاكم بإسناده عن زيد بن ثابت قال: كنا عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نؤلف القرآن من الرقاع، الحديث. أقول: و لعل المراد ضم بعض

الآيات النازلة نجوما إلى بعض السور أو إلحاق بعض السور إلى بعضها مما يتماثل صنفا كالطوال و المئين و المفصلات فقد ورد لها ذكر فى الأحاديث النبوية، و إلّا فتأليف القرآن و جمعه مصحفا واحدا إنما كان بعد ما قبض النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بلا إشكال، و على مثل هذا ينبغى أن يحمل ما يأتى. فى صحيح النسائى عن ابن عمر قال: جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة فبلغ النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: اقرأه فى شهر. و فى الإتقان عن ابن أبى داود بسند حسن عن محمد بن كعب القرظى قال: جمع القرآن على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل و عبادة بن الصامت و أبى بن كعب و أبو الدرداء و أبو أيوب الأنصارى. و فيه عن البيهقى فى المدخل عن ابن سيرين قال: جمع القرآن على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أربعة لا يختلف فيهم: معاذ بن جبل و أبىّ بن كعب و أبو زيد و اختلفوا فى رجلين من ثلاثة: أبى الدرداء و عثمان، و قيل: عثمان و تميم الدارى. و فيه عنه و عن ابن أبى داود عن الشعبى قال: جمع القرآن فى عهد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ستة: أبى و زيد و معاذ و أبو الدرداء و سعيد بن عبيد و أبو زيد و مجمع بن حارثة، و قد أخذه إلّا سورتين أو ثلاث. و فيه أيضا عن ابن أشتة فى كتاب المصاحف من طريق كهمس عن ابن الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۵۷ بريدة قال: أول من جمع القرآن فى مصحف سالم مولى أبى حذيفة أقسم لا يرتدى برداء حتى يجمعه فجمعه، الحديث. أقول: أقصى ما تدلّ عليه هذه الروايات مجرّد جمعهم ما نزل من السور و الآيات، و أما العناية بترتيب السور و الآيات كما هو اليوم أو بترتيب آخر فلا. هذا هو الجمع الأول فى عهد أبى بكر. و قد جمع القرآن ثانيا فى عهد عثمان لما اختلفت المصاحف و كثرت القراءات. قال اليعقوبى فى تاريخه: و جمع عثمان القرآن و ألّفه و صيّر الطوال مع الطوال و القصار مع القصار من السور، و كتب فى جمع المصاحف من الآفاق حتى جمعت ثم سلقها بالماء الحار و الخلّ، و قيل: أحرقها فلم يبق مصحف حتى فعل به ذلك خلا مصحف ابن مسعود. و كان ابن مسعود بالكوفة فامتنع أن يدفع مصحفه إلى عبد اللّه بن عامر و كتب [إليه عثمان أن أشخصه إن لم يكن هذا الدين خبالا و هذه الأمة فسادا فدخل المسجد و عثمان يخطب فقال عثمان: إنه قد قدمت عليكم دابة سوء فكلّم ابن مسعود بكلام غليظ فأمر به عثمان فجرّ برجله حتى كسر له ضلعان فتكلمت عائشة و قالت قولا كثيرا. و بعث بها إلى الأمصار و بعث بمصحف إلى الكوفة و مصحف إلى البصرة و مصحف إلى المدينة و مصحف إلى مكة و مصحف إلى مصر و مصحف إلى الشام و مصحف إلى البحرين و مصحف إلى اليمن و مصحف إلى الجزيرة. و أمر الناس أن يقرءوا على نسخة واحدة، و كان سبب ذلك أنه بلغه أن الناس يقولون: قرآن آل فلان فأراد أن يكون نسخته واحدة، و قيل: إن ابن مسعود كان كتب بذلك إليه فلما بلغه أنه كان يحرق المصاحف قال: لم أرد هذا، و قيل: كتب إليه بذلك حذيفة بن اليمان، انتهى موضع الحاجة. و فى الإتقان روى البخارى عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان و كان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية و أذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال لعثمان: أدرك الأمة قبل أن يختلفوا الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۵۸ اختلاف اليهود و النصارى فأرسل إلى حفصة أن أرسلى إلينا الصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت و عبد اللّه بن الزبير و سعيد بن العاص و عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف. و قال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم و زيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة و أرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا و أمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق. قال زيد: آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصارى: «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه» فألحقناها فى سورتها فى المصحف. و فيه أخرج ابن أشتة من طريق أيوب عن أبى قلابة قال: حدثنى رجل من بنى عامر يقال له أنس بن مالك قال: اختلفوا فى القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان و المعلمون فبلغ عثمان بن عفان فقال: عندى تكذبون به و تلحنون فيه فمن نأى عنى كان أشدّ تكذيبا و أكثر لحنا يا أصحاب محمد اجتمعوا و اكتبوا للناس إماما. فاجتمعوا فكانوا إذا اختلفوا و تدارءوا فى آية قالوا: هذه أقرأها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلانا فيرسل إليه و

هو على رأس ثلاث من المدينة فيقال له: كيف أقرأك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آية كذا و كذا؟ فيقول كذا و كذا فيكتبونها و قد تركوا لذلك مكانا. و فيه عن ابن أبى داود من طريق ابن سيرين عن كثير بن أفلح قال: لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثنى عشر رجلا من قريش و الأنصار فبعثوا إلى الربعة التى فى بيت عمر فجىء بها و كان عثمان يتعاهدهم فكانوا إذا تداروا فى شىء أخروه. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۵۹ قال محمد: فظننت أنما كانوا يؤخرونه لينظروا أحدثهم عهدا بالعرضة الأخيرة فيكتبونه على قوله. و فيه أخرج ابن أبى داود بسند صحيح عن سويد بن غفلة قال: قال على: لا تقولوا فى عثمان إلّا خيرا فو اللّه ما فعل الذى فعل فى المصاحف إلّا عن ملاء منا قال ما تقولون فى هذه القراءة؟ فقد بلغنى أن بعضهم يقول: إن قراءتى خير من قراءتك و هذا يكاد يكون كفرا قلنا: فما ترى؟. [قال أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا يكون فرقة و لا اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت. و فى الدر المنثور أخرج ابن الضريس عن علباء بن أحمر أن عثمان بن عفان لما أراد أن يكتب المصاحف أرادوا أن يلقوا الواو التى فى براءة وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ قال أبى: لتلحقنها أو لأضعن سيفى على عاتقى فألحقوها. و فى الإتقان عن أحمد و أبى داود و الترمذى و النسائى و ابن حبان و الحاكم عن ابن عباس قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال و هى من المثانى، و إلى براءة و هى من المئين فقرنتم بينهما و لم تكتبوا بينهما سطر بسم اللّه الرحمن الرحيم، و وضعتموهما فى السبع الطوال. فقال عثمان: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا أنزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا و كذا، و كانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة و كانت براءة من آخر القرآن نزولا و كانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يبين لنا أنها منها. فمن أجل ذلك قرنت بينهما، و لم أكتب بينهما سطر بسم اللّه الرحمن الرحيم و وضعتها فى السبع الطوال. أقول: السبع الطوال- على ما يظهر من هذه الرواية و روى أيضا عن ابن جبير- هى البقرة و آل عمران و النساء و المائدة و الأنعام و الأعراف و يونس، و قد كانت موضوعة فى الجمع الأول على هذا الترتيب ثم غير الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۶۰ عثمان هذا الترتيب فأخذ الأنفال و هى من المثانى و براءة و هى من المئين قبل المثانى فوضعهما بين الأعراف و يونس مقدما الأنفال على براءة.

نتيجة البحث:

نتيجة البحث: الروايات التى مرّت سابقا هى أشهر الروايات الواردة فى باب جمع القرآن و تأليفه بين صحيحة و سقيمة، و هى تدل على أن الجمع الأول كان جمعا لشتات السور المكتوبة فى العسب و اللخاف و الأكتاف و الجلود و الرقاع و إلحاق الآيات النازلة متفرقة إلى سور تناسبها. و إن الجمع الثانى و هو الجمع العثمانى كان رد المصاحف المنتشرة عن الجمع الأول بعد عروض تعارض النسخ و اختلاف القراءات عليها إلى مصحف واحد مجمع عليه عدا ما كان من قول زيد أنه ألحق قوله: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ الآية، فى سورة الأحزاب فى المصحف فقد كانت المصاحف تتلى خمس عشرة سنة و ليست فيها الآية. و قد روى البخارى عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: يا ابن أخى لا أغير شيئا منه من مكانه. و الذى يعطيه النظر الحر فى هذه الروايات و دلالتها- و هى عمدة ما فى هذا الباب- أنها آحاد غير متواترة لكنها محفوفة بقرائن قطعية فقد كان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يبلغ الناس ما نزّل إليه من ربه من غير أن يكتم منه شيئا، و كان يعلّمهم و يبيّن لهم ما نزّل إليهم من ربهم على ما نص عليه القرآن و لم يزل جماعة منهم يعلمون و يتعلمون القرآن تعلم تلاوة و بيان و هم القرّاء الذين قتل جم غفير منهم فى غزوة اليمامة. و كان الناس على رغبة شديدة فى أخذ القرآن و تعاطيه و لم يترك هذا الشأن و لا- ارتفع القرآن من بينهم و لا- يوما أو بعض يوم حتى جمع القرآن فى مصحف واحد ثم أجمع عليه فلم يبتل القرآن بما ابتليت به التوراة و الإنجيل و كتب سائر الأنبياء. أضف إلى ذلك روايات لا تحصى كثرة وردت من طرق الشيعة و أهل الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۶۱ السنّة فى قراءاته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كثيرا من السور القرآنية فى الفرائض

اليومية و غيرها بمسمع من ملأ الناس، و قد سمى فى هذه الروايات جم غفير من السور القرآنية مكيتها و مدنيتها. أضف إلى ذلك ما تقدم فى رواية عثمان بن أبى العاص فى تفسير قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ «۱» الآية، من قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن جبرئيل أتانى بهذه الآية و أمرنى أن أضعها فى موضعها من السورة، و نظير الرواية فى الدلالة ما دل على قراءته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لبعض السور النازلة نجوما كآل عمران و النساء و غيرها فيدل على أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يأمر كتاب الوحى بإلحاق بعض الآيات فى موضعها. و أعظم الشواهد القاطعة ما تقدم فى أول هذه الأبحاث أن القرآن الموجود بأيدينا واجد لما وصفه اللّه تعالى من الأوصاف الكريمة. و بالجملة الذى تدل عليه هذه الروايات هى: أولا: أن الموجود فيما بين الدفتين من القرآن هو كلام اللّه تعالى فلم يزد فيه شىء و لم يتغير منه شىء و أما النقص فإنها لا تفى بنفيه نفيا قطعيا كما روى بعدة طرق أن عمر كان يذكر كثيرا آية الرجم و لم تكتب عنه و أما حملهم الرواية و سائر ما ورد فى التحريف- و قد ذكر الآلوسى فى تفسيره أنها فوق حد الإحصاء- على منسوخ التلاوة فقد عرفت فساده و تحققت أن إثبات منسوخ التلاوة أشنع من إثبات أصل التحريف. على أن من كان له مصحف غير ما جمعه زيد أولا بأمر من أبى بكر و ثانيا بأمر من عثمان كعلى عليه السّلام و أبى بن كعب و عبد اللّه بن مسعود لم ينكر شيئا مما حواه المصحف الدائر غير ما نقل عن ابن مسعود أنه لم يكتب فى مصحفه المعوّذتين و كان يقول: إنهما عوذتان نزل بهما جبريل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليعوّذ بهما الحسنين عليه السّلام، و قد ردّه سائر الصحابة و تواترت النصوص من أئمة أهل البيت عليه السّلام على أنهما سورتان من القرآن. و بالجملة: الروايات السابقة- كما ترى- آحاد محفوفة بالقرائن

(_____ ۱) النحل- ۹۰. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۶۲ القطعية نافية للتحريف بالزيادة و التغيير قطعا دون النقص إلّا ظنا، و دعوى بعضهم التواتر من حيث الجهات الثلاث لا- مستند لها. و التعويل فى ذلك على ما قدمناه من الحجة فى أول هذه الأبحاث أن القرآن الذى بأيدينا واجد للصفات الكريمة التى وصف اللّه سبحانه بها القرآن الواقعى الذى أنزله على رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ككونه فصلا و رافعا للاختلاف و ذكرا و هاديا و نورا و مبينا للمعارف الحقيقية و الشرائع الفطرية و آية معجزة إلى غير ذلك من صفاته الكريمة. و من الحرى أن نعوّل على هذا الوجه فإن حجة القرآن على كونه كلام اللّه المنزل على رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هى نفسه المتصفة بهاتيك الصفات الكريمة من غير أن يتوقف فى ذلك على أمر آخر وراء نفسه كائنا ما كان فحجته معه أينما تحقق و بيد من كان و من أى طريق وصل. و بعبارة أخرى لا يتوقف القرآن النازل من عند اللّه إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى كونه متصفا بصفاته الكريمة على ثبوت استناده إليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بنقل متواتر أو متظافر- و إن كان واجدا لذلك- بل الأمر بالعكس فاتصافه بصفاته الكريمة هو الحجة على الاستناد فليس كالكتب و الرسائل المنسوبة إلى المصنّفين و الكتاب، و الأقاويل المأثورة عن العلماء و أصحاب الأنظار المتوقفة صحة استنادها إلى نقل قطعى و بلوغ متواتر أو مستفيض مثلا بل نفسه ذاته هى الحجة على ثبوته. و ثانيا: إن ترتيب السور إنما هو من الصحابة فى الجمع الأول و الثانى و من الدليل عليه ما تقدم فى الروايات من وضع عثمان الأنفال و براءة بين الأعراف و يونس و قد كانتا فى الجمع الأول متأخرتين. و من الدليل عليه ما ورد من مغايرة ترتيب مصاحف سائر الصحابة للجمع الأول و الثانى كليهما كما روى أن مصحف على عليه السّلام كان مرتبا على ترتيب النزول فكان أوله اقرأ ثم المدثر ثم نون ثم المزمّل ثم تبّت ثم التكوير و هكذا إلى آخر المكى و المدنى نقله فى الإتقان عن ابن فارس، و فى تاريخ اليعقوبى ترتيب آخر لمصحفه عليه السّلام. و نقل عن ابن أشتة فى المصاحف بإسناده عن أبى جعفر الكوفى ترتيب الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۶۳ مصحف أبى و هو يغاير المصحف الدائر مغايرة شديدة، و كذا عنه فيه بإسناده عن جرير بن عبد الحميد ترتيب مصحف عبد اللّه بن مسعود آخذا من الطوال ثم المئين ثم المثانى ثم المفصّل و هو أيضا مغاير للمصحف الدائر. و قد ذهب كثير منهم إلى أن ترتيب السور توقيفى و أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو الذى أمر بهذا الترتيب بإشارة من جبريل بأمر من اللّه سبحانه حتى أفرط بعضهم فادّعى ثبوت ذلك بالتواتر و ليت شعرى أين هذا التواتر و قد تقدّمت عمدة روايات الباب و لا أثر فيها من هذا المعنى،

و سيأتى استدلال بعضهم على ذلك بما ورد من نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا جملة ثم منها على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تدريجا. و ثالثا: إن وقوع بعض الآيات القرآنية التى نزلت متفرقة موقعها الذى هى فيه الآن لم يخل عن مداخلة من الصحابة بالاجتهاد كما هو ظاهر روايات الآية الجمع الأول و قد تقدمت. و أما رواية عثمان بن أبى العاص عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من السورة إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ الآية، فلا تدل على أزيد من فعله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى بعض الآيات فى الجملة لا بالجملة، و على تقدير التسليم لا دلالة لما بأيدينا من الروايات المتقدمة على مطابقة ترتيب الصحابة ترتيبه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و مجرّد حسن الظن بهم لا يسمح للروايات بدلالة تدلّ بها على ذلك و إنما يفيد أنهم ما كانوا ليعمدوا إلى مخالفة ترتيبه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيما علموه لا فيما جهلوه. و فى روايات الجمع الأول المتقدمة أوضح الشواهد على أنهم ما كانوا على علم بمواضع جميع الآيات و لا بنفسها. و يدلّ على ذلك الروايات المستفيضة التى وردت من طرق الشيعة و أهل السنّة أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين إنما كانوا يعلمون تمام السورة بنزول البسملة كما رواه أبو داود و الحاكم و البيهقى و البزّار من طريق سعيد بن جبير- على ما فى الإتقان- عن ابن عباس قال: كان النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يعرف فصل السورة حتى تنزل عليه بسم اللّه الرحمن الرحيم، زاد البزّار: فإذا نزلت عرف أن السورة قد ختمت و استقبلت أو ابتدأت سورة أخرى. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۶۴ و أيضا عن الحاكم من وجه آخر عن سعيد عن ابن عباس قال: كان المسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتى تنزل بسم اللّه الرحمن الرحيم فإذا نزلت علموا أن السورة قد انقضت، إسناده على شرط الشيخين. و أيضا عنه من وجه آخر عن سعيد عن ابن عباس أن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا جاءه جبريل فقرأ بسم اللّه الرحمن الرحيم علم أنها سورة، إسناده صحيح. أقول: و روى ما يقرب من ذلك فى عدة روايات أخرى و روى ذلك من طرق الشيعة عن الباقر عليه السّلام. و الروايات- كما ترى- صريحة فى دلالتها على أن الآيات كانت مرتبة عند النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بحسب ترتيب النزول فكانت المكيّات فى السورة المكيّة و المدنيات فى سورة مدنيّة اللهم إلّا أن يفرض سورة نزل بعضها بمكة و بعضها بالمدينة و لا يتحقق هذا الفرض إلّا فى سورة واحدة. و لازم ذلك أن يكون ما نشاهده من اختلاف مواضع الآيات مستندا إلى اجتهاد من الصحابة. توضيح ذلك أن هناك ما لا يحصى من روايات أسباب النزول يدل على كون آيات كثيرة فى السور المدنية نازلة بمكة و بالعكس و على كون آيات من القرآن نازلة مثلا فى أواخر عهد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هى واقعة فى سور نازلة فى أوائل الهجرة، و قد نزلت بين الوقتين سور أخرى كثيرة و ذلك كسورة البقرة التى نزلت فى السنة الأولى من الهجرة و فيها آيات الربا و قد وردت الروايات على أنها من آخر ما نزلت على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتى ورد عن عمر أنه قال: مات رسول اللّه و لم يبين لنا آيات الربا، و فيها قوله تعالى: وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ «۱» الآية. و قد ورد أنها آخر ما نزل من القرآن على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. فهذه الآيات النازلة مفرقة الموضوعة فى سور لا تجانسها فى المكية و المدنية موضوعة فى غير موضعها بحسب ترتيب النزول و ليس إلّا عن اجتهاد من الصحابة. و يؤيد ذلك ما فى الإتقان عن ابن حجر: و قد ورد عن على أنه جمع (_____ ۱) البقرة- ۲۸۱. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۶۵ القرآن على ترتيب النزول عقب موت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أخرجه ابن أبى داود و هو من مسلمات مدالیل روايات الشيعة. هذا ما يدل عليه ظاهر روايات الباب المتقدمة لكن الجمهور أصروا على أن ترتيب الآيات توقيفى فآيات المصحف الدائر اليوم و هو المصحف العثمانى مرتبة على ما رتبها عليه النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بإشارة من جبريل، و أوّلوا ظاهر الروايات بأن جمع الصحابة لم يكن جمع ترتيب و إنما كان جمعا لما كانوا يعلمونه و يحفظونه عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من السور و آياتها المرتبة، بين دفتين و فى مكان واحد. و أنت خبير بأن كيفية الجمع الأول التى تدلّ عليها الروايات تدفع هذه الدعوى دفعا صريحا. و ربما استدل عليه بما ادّعاه بعضهم من الإجماع على ذلك فقد نقل السيوطى فى الإتقان عن الزركشى دعوى الإجماع عليه و عن أبى جعفر بن الزبير نفى الخلاف فيه بين المسلمين، و هو إجماع منقول لا يعتمد عليه بعد

وجود الخلاف فى أصل التحريف و دلالة ما تقدم من الروايات على خلافه. و ربما استدل عليه بالتواتر و يوجد ذلك فى كلام كثير منهم ادعوا تواتر الترتيب الموجود عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو عجيب و قد نقل فى الإتقان بعد نقله ما رواه البخارى و غيره بعدة طرق عن أنس أنه قال: مات النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، و معاذ بن جبل و زيد بن ثابت و أبو زيد، و فى رواية أبى بن كعب بدل أبى الدرداء. عن المازرى أنه قال: و قد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة و لا متمسّك لهم فيه فإنا لا نسلم حمله على ظاهره سلمنا و لكن من أين لهم أن الواقع فى نفس الأمر كذلك سلمناه لكن لا يلزم من كون كل من الجم الغفير لم يحفظه كله أن لا يكون حفظ مجموعه الجم الغفير و ليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه بل إذا حفظ الكلّ الكل و لو على التوزيع كفى، انتهى. أما دعواه أن ظاهر كلام أنس غير مراد فهو مما لا يصغى إليه فى الأبحاث اللفظية المبنية على ظاهر اللفظ إلّا بقرينة من نفس كلام المتكلم أو الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۶۶ ما ينوب منابه أما مجرد الدعوى و الاستناد إلى قول آخرين فلا- على أنه لو حمل كلام أنس على خلاف ظاهره كان من الواجب أن يحمل على أن هؤلاء الأربعة إنما جمعوا فى عهد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معظم القرآن و أكثر سوره و آياته لا على أنهم و غيرهم من الصحابة جمعوا جميع القرآن على ما فى المصحف العثمانى و حفظوا ترتيب سوره و آياته و ضبطوا موضع كل واحدة واحدة منها عن آخرها فهذا زيد بن ثابت نفسه- و هو أحد الأربعة المذكورين فى حديث أنس و المتصدى للجمع الأول و الثانى كليهما- يصرّح فى رواياته أنه لم يحفظ جميع الآيات. و نظيره ما فى الإتقان عن ابن أشتة فى المصاحف بسند صحيح عن محمد بن سيرين قال: مات أبو بكر و لم يجمع القرآن و قتل عمر و لم يجمع القرآن. و أما قوله: سلمناه و لكن من أين لهم أن الواقع فى نفس الأمر كذلك؟ فمقلوب على نفسه فمن أين لهذا القائل أن الواقع فى نفس الأمر كما يدعيه و قد عرفت الشواهد على خلاف ما يدّعيه؟ و أما قوله: إنه يكفى فى تحقق التواتر أن يحفظ الكل كل القرآن على سبيل التوزيع فمغالطة واضحة لأنه إنما يفيد كون مجموع القرآن من حيث المجموع منقولا بالتواتر و أما كون كل واحدة واحدة من الآيات القرآنية محفوظة من حيث محلها و موضعها بالتواتر فلا و هو ظاهر. و نقل فى الإتقان عن البغوى أنه قال فى شرح السنّة: الصحابة جمعوا بين الدفتين القرآن الذى أنزله اللّه على رسوله من غير أن زادوا أو نقصوا منه شيئا خوف ذهاب بعضه بذهاب حفظته فكتبوه كما سمعوا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من غير أن قدموا شيئا أو أخروه أو وضعوا له ترتيبا لم يأخذوه من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يلقن أصحابه و يعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذى هو الآن فى مصاحفنا بتوقيف جبريل إياه على ذلك و إعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا فى سورة كذا. فثبت أن سعى الصحابة كان فى جمعه فى موضع واحد لا فى ترتيبه الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۶۷ فإن القرآن مكتوب فى اللوح المحفوظ على هذا الترتيب أنزله اللّه جملة إلى السماء الدنيا ثم كان ينزله مفرقا عند الحاجة و ترتيب النزول غير ترتيب التلاوة، انتهى. و نقل عن ابن الحصار أنه قال: ترتيب السور و وضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحى كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: ضعوا آية كذا فى موضع كذا، و قد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و إنما أجمع الصحابة على وضعه هكذا فى المصحف، انتهى. و نقل أيضا ما يقرب من ذلك عن جماعة غيرهم كالبيهقى و الطيبى و ابن حجر. أما قولهم: إن الصحابة إنما كتبوا المصحف على الترتيب الذى أخذوه عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من غير أن يخالفوه فى شىء فمما لا يدل عليه شىء من الروايات المتقدمة و إنما المسلم من دلالتها أنهم إنما أثبتوا ما قامت عليه البينة من متن الآيات و لا إشارة فى ذلك إلى كيفية ترتيب الآيات النازلة مفرقة و هو ظاهر نعم فى رواية ابن عباس المتقدّمة عن عثمان ما يشير إلى ذلك غير أن الذى فيه أنه كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يأمر بعض كتاب الوحى بذلك و هو غير إعلامه جميع الصحابة ذلك على أن الرواية معارضة بروايات الجمع الأول و أخبار نزول بسم اللّه و غيرها. و أما قولهم: إن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لقن الصحابة هذا الترتيب الموجود فى مصاحفنا بتوقيف من جبريل و وحى سماوى فكأنه إشارة إلى حديث عثمان ابن أبى العاص المتقدم فى آية إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ «۱» و قد عرفت

مما تقدم أنه حديث واحد فى خصوص موضع آية واحدة، و أين ذلك من مواضع جميع الآيات المفرقة. و أما قولهم: إن القرآن مكتوب على هذا الترتيب فى اللوح المحفوظ أنزله اللّه إلى السماء الدنيا ثم أنزله اللّه مفرقا عند الحاجة ... إلخ، فإشارة إلى ما روى مستفيضا من طرق الشيعة و أهل السنّة من نزول القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ثم نزوله منها نجوما إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكن (_____ ۱) النحل- ۹۰. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۶۸ الروايات ليس فيها أدنى دلالة على كون القرآن مكتوبا فى اللوح المحفوظ منظما فى السماء الدنيا على الترتيب الموجود فى المصحف الذى عندنا و هو ظاهر. و أما قولهم: إنه قد حصل اليقين بالنقل المتواتر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذا الترتيب الموجود فى المصاحف فقد عرفت أنه دعوى خالية عن الدليل و أن هذا التواتر لا خبر عنه بالنسبة إلى كلّ آية آية كيف و قد تكاثرت الروايات أن ابن مسعود لم يكتب فى مصحفه المعوذتين و كان يقول: إنهما ليستا من القرآن و إنما نزل بهما جبريل تعويذا للحسنين، و كان يحكهما عن المصاحف، و لم ينقل عنه أنه رجع عن قوله فكيف خفى عليه هذا التواتر طول حياته بعد الجمع الأول.

نظرة عابرة فى روايات الإنساء

نظرة عابرة فى روايات الإنساء يتعلق بالبحث السابق البحث فى روايات الإنساء- و قد مرّت إشارة إجمالية إليها- و هى عدة روايات وردت من طرق أهل السنّة فى نسخ القرآن و إنسائه حملوا عليها ما ورد من روايات التحريف سقوطا و تغييرا. فمنها ما فى الدر المنثور عن ابن أبى حاتم و الحاكم فى الكنى و ابن عدىّ و ابن عساكر عن ابن عباس قال: كان مما ينزل على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الوحى بالليل و ينسئه بالنهار فأنزل اللّه: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها «۱». و فيه عن أبى داود فى ناسخه و البيهقى فى الدلائل عن أبى أمامة أن رهطا من الأنصار من أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أخبروه أن رجلا قام من جوف الليل يريد أن يفتتح سورة كان قد وعاها فلم يقدر منها على شىء إلّا بسم اللّه الرحمن الرحيم و وقع ذلك لناس من أصحابه فأصبحوا فسألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن السورة فسكت ساعة لم يرجع إليهم شيئا ثم قال: نسخت البارحة فنسخت من صدورهم و من كل شىء كانت فيه. أقول: و القصة مروية بعدة طرق فى ألفاظ متقاربة مضمونا. (_____ ۱) البقرة- ۱۰۶. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۶۹ و فيه عن عبد الرزاق و سعيد بن منصور و أبى داود فى ناسخه و ابنه فى المصاحف و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صحّحه عن سعد بن أبى و قاص أنه قرأ: «ما ننسخ من آية أو ننسأها، فقيل له: إنّ سعيد بن المسيب يقرأ «ننسها» فقال سعد: إن القرآن لم ينزل على المسيّب و لا آل المسيّب، قال اللّه: سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ. أقول: يريد بالتمسك بالآيتين أن اللّه رفع النسيان عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيتعين أن يقرأ «ننسأها» من النسء، بمعنى الترك و التأخير فيكون المراد بقوله ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ إزالة الآية عن العمل دون التلاوة كآية صدقة النجوى، و بقوله: «أو ننسأها» ترك الآية و رفعها من عندهم بالمرة و إزالتها عن العمل و التلاوة كما روى تفسيرها بذلك عن ابن عباس و مجاهد و قتادة و غيرهم. و فيه أخرج ابن الأنبارى عن أبى ظبيان قال: قال لنا ابن عباس: أى القراءتين تعدّون أول؟ قلنا: قراءة عبد اللّه و قراءتنا هى الأخيرة. فقال: رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يعرض عليه جبريل القرآن كل سنة مرة فى شهر رمضان و إنه عرضه عليه فى آخر سنة مرتين فشهد منه عبد اللّه ما نسخ ما بدل. أقول: و هذا المعنى مروى بطرق أخرى عن ابن عباس و عبد اللّه بن مسعود نفسه و غيرهما من الصحابة و التابعين، و هناك روايات أخر فى الإنساء. و محصّل ما استفيد منها أن النسخ قد يكون فى الحكم كالآيات المنسوخة المثبتة فى المصحف، و قد يكون فى التلاوة مع نسخ حكمها أو من غير نسخ حكمها كما يظهر فى تفسير قوله: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ «۱». و قوله: وَ إِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ «۲»، أن الآيتين أجنبيتان عن الإنساء بمعنى نسخ التلاوة، و تقدم أيضا فى الفصول السابقة أن

هـذه الروايـات مخالفـة لصـريح الكتـاب فـالوجه عطفهـا على روايـات التحريـف و طرح القـبيلين جميعـا «۳».

(_____ ۱) البقرة- ۱۰۶. (۲) النحل- ۱۰۱.

(۳) انظر جميع ما تقدم فى المجلد الثانى عشر من الميزان ص ۱۱۶. الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۷۰

الفهرس

الفهرس المقدمة ۷ التحدى القرآنى بالإعجاز ۹ التحدّى بالعلم ۱۱ التحدّى بمن أنزل عليه القرآن ۱۳ تحدّى القرآن بالأخبار عن الغيب ۱۵ تحدى القرآن بعدم الاختلاف فيه ۱۸ التحدّى بالبلاغة ۲۱ تصديق القرآن لقانون العلية العامة ۲۹ إثبات القرآن ما يخرق العادة ۳۰ القرآن يسند ما أسند إلى العلة المادية إلى اللّه ۳۵ القرآن يثبت تأثيرا فى نفوس الأنبياء ۳۷ القرآن يسند الخوارق إلى أمر اللّه ۳۹ القرآن يسند المعجزة إلى سبب غير مغلوب ۴۱ القرآن يعدّ المعجزة برهانا على صحة الرسالة ۴۳ نزول القرآن ۵۱ النزول حقيقته و تعريفه ۵۱ كيفية نزول القرآن ۵۱ بعض الإشكالات و الردّ عليها ۵۶ عمدة البيان فى ترتيب القرآن ۶۲ الإعجاز و التحدى فى القرآن الكريم، ص: ۱۷۱ معنى الأجزاء و الأحزاب القرآنية ۶۲ عدد السور القرآنية ۶۴ فى ترتيب السور نزولا ۶۶ المحكم و المتشابه و التأويل فى القرآن ۶۹ حقيقة المحكم و المتشابه ۶۹ المحكمات أم الكتاب ۸۲ حقيقة التأويل ۸۴ هل يعلم تأويل القرآن غير اللّه ۹۱ ما هو السبب فى اشتمال الكتاب على المتشابه ۹۹ المحكم و المتشابه فى ضوء الروايات ۱۱۳ التفسير حقيقته و أقسامه ۱۲۲ عصمة القرآن عن التحريف ۱۳۷ القرآن ينفى وقوع التحريف فيه ۱۳۷ الروايات تنفى وقوع التحريف ۱۴۱ نقد القول بالتحريف ۱۴۳ جمع القرآن الكريم ۱۵۴ نظرة عابرة فى روايات الإنساء ۱۶۸ الفهرس ۱۷۰

تعريف المركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱). قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷). مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم. مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة... الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلى التَّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت – عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و... – مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جهةٍ أُخرَى. – من الأنشطة الواسعة للمركز: الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ

كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول ج) إنتاج المَعارض ثّـلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و... د) إبداع الموقع الانترنتى" القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عـدّة مَواقِعَ اُخرَ ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴) ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و... ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان" ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة "تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة) رقم التسجيل: ۲۳۷۳ الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶ الموقع: www.ghaemiyeh.com البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱) الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱) مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱) التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹ امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱) ملاحَظة هامّة: الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مركز القائمية اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩